تفسير سورة النساء

كاملة بأسلوب سهل جدا!

رامي حنفي محمود

الألوكة
www.alukah.net

سلسلة كيف نفهم القرآن؟١

(تفسير سورة النساء بأسلوب بسيط جداً)

١. تفسير الربع الأول من سورة النساء

الآية ١: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ﴾ أي خافوا عذابَ ربكم (وذلك بامتثال أمْره واجتناب نَهْيه)، فهو سبحانه ﴿الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ وهي نفس آدم عليه السلام ﴿وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ أي: وخلق حواء عليها السلام من ضلع آدم ﴿وَبَثَّ مِنْهُمَا﴾ أي: وخلق من آدم وحواء بالتناسل: ﴿رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً﴾ في جميع أنحاء الأرض، ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ﴾ أي الذي يَسْأل به بعضكم بعضًا، فيقول الرجل لأخيه: (بالله عليكَ افعَل كذا)، ﴿وَالْأَرْحَامَ﴾ أي: واحذروا أن تقطعوا الأرحام ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ (فهو سبحانه يراكم ويَسمع كلامكم، ويَعلم سِرَّكم وجَهْركم).

الآية ٢: ﴿وَآتُوا الْيَتَامَى﴾ (وهم الذين مات آباؤهم وهم قبل سن البلوغ)، فإذا كنتم أوصياء عليهم فأعطوهم ﴿أَمْوَالَهُمْ﴾ التي لهم عندكم (هذا إذا وصلوا سن البلوغ، ورأيتم منهم قدرة على حِفظ أموالهم)، ﴿وَلَا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ﴾ أي: ولا تأخذوا الجيِّد من أموالهم، وتجعلوا مكانه الرديء من أموالكم (كأنْ تعطوهم شاة نحيفة وتأخذوا مكانها شاة سمينة وغير ذلك) ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ﴾ أي: ولا تَخلِطوا أموالهم بأموالكم بقصد أن تحتالوا بذلك على أخْذ أموالهم ﴿إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا﴾: يعني إنّ مَن فعَلَ ذلك فقد ارتكب إثمًا عظيمًا.

الآية ٣: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى﴾ أي: وإن أردتم الزواج من البنات اليتامَى (اللاتي كنتم أوصياء عليهنّ)، وخِفتم ألاَّ تَعدِلوا فيهنّ، وذلك بألا تُعطوهنّ مُهورهنّ كغيرهنّ: ﴿فَانْكِحُوا﴾: أي فاتركوهنّ وانكحوا غيرهنّ مِن ﴿مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ﴾ ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا﴾

---

1 وهي سلسلة تفسير لآيات القرآن الكريم بأسلوب بسيط جدًّا، وهي مُختصَرة من (كتاب: "التفسير المُيَسَّر" (بإشراف التركي)، وأيضًا من "تفسير السّعدي "، وكذلك من كتاب: " أيسر التفاسير" لأبي بكر الجزائري) (بتصرف)، عِلمًا بأنّ ما تحته خط هو نص الآية الكريمة، وأما الكلام الذي ليس تحته خط فهو التفسير.

– واعلم أن القرآن قد نزلَ مُتحدياً لقومٍ يَعشقون الحَذفَ في كلامهم، ولا يُحبون كثرة الكلام، فجاءهم القرآن بهذا الأسلوب، فكانت الجُملة الواحدة في القرآن تتضمن أكثر مِن مَعنى: (مَعنى واضح، ومعنى يُفهَم من سِيَاق الآية)، وإننا أحياناً نوضح بعض الكلمات التي لم يذكرها الله في كتابه (بَلاغةً)، حتى نفهم لغة القرآن.

بين الزوجات: ﴿فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾: أي فاكتفوا بواحدة، أو بما عندكم من الجَوَاري المملوكات لكم شرعاً (إن وُجِدْنَ)، ﴿ذَلِكَ﴾ الذي شَرَعتُهُ لكم في اليَتيمات، والزواج من واحدة إلى أربع، أو الاقتصار على واحدة، أو الجَوَاري هو ﴿أَدْنَى أَلَّا تَعُولُوا﴾: أي أقرب إلى عدم ظلم الزوجات (بترك العدل بينهنّ في العطاء).

الآية ٤: ﴿وَآتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ﴾ أي: وأعطوا النساء مُهورهنّ، (واعلم أن صَدُقات: جمع صَدُقة) بضَمّ الدال) وهو الصَداق الذي يُعرَفُ بالمَهر)، ﴿نِحْلَةً﴾: أي عَطِيَّة واجبة وفريضة لازمة، عن طِيب نفسٍ منكم، ﴿فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْسًا﴾: أي فإن طابَتْ أنفسهنّ عن شيءٍ من المهر فوهَبْنَهُ لكم: ﴿فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَرِيئًا﴾: أي فخذوه وتصرَّفوا فيه، فهو حلالٌ طيب.

الآية ٥: ﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ﴾ – وهم اليتامى الذين لا يُحسنون التصرف في المال – فلا تُعطوهم ﴿أَمْوَالَكُمُ﴾: أي لا تُعطوهم أموالهم التي تحت أيديكم، حتى لا يُنفِقوها في غير موضعها (إسرافًا)، لأن هذه الأموال هي ﴿الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا﴾ أي التي عليها قيام حياة الناس، ﴿وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ﴾ أي: وأنفِقوا عليهم منها، وَاكْسُوهم، (ويُلاحَظ أنّ اللَه تعالى قال: (وارزقوهم فيها)، ولم يقل: (وارزقوهم منها) إشارةً إلى أنّ المال ينبغي أن يُستثمَر لهم في تجارةٍ أو صناعةٍ أو زراعة، بحيث يَبقى رأس المال محفوظاً، وتكون النفقة والكِسوة عليهم من الربح فقط)، ﴿وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾ أي قولاً تَطِيبُ به نفس اليتيم، فلا يَغضب ولا يَحزن إذا لم يُعطَ من المال، كأن تقولوا له: (هذا مالكم نحفظه لكم لتأخذوه يوم تَرشُدون).

الآية ٦: ﴿وَابْتَلُوا الْيَتَامَى﴾ أي اختبروا اليتامَى الذين تحت أيديكم، لمعرفة قدرهم على حُسن التصرف في أموالهم، ﴿حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ﴾ - وهو سن البلوغ – ﴿فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا﴾: أي فإذا عَلمتم منهم صلاحًا في دينهم، وقدرةً على حِفظ أموالهم: ﴿فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ﴾ ﴿وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَنْ يَكْبَرُوا﴾ أي: ولا تعتدوا على أموالهم بإنفاقها في غير موضعها (إسرافًا)، ومُسارَعةً بأخْذِها قبل أن يَكبروا فيأخذوها منكم، ﴿وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ﴾ بغِناه ولا يأخذ من مال اليتيم شيئًا، ﴿وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ﴾ أي فليأخذ من مال اليتيم (الذي تحت يديه) بقدر حاجته عند الضرورة (ويَرُدُّهُ إليهم متى تَيَسَّرَ له ذلك)، وكذلك يأخذ منه على قدر أُجْرَتِه (إذا كان يَستثمر لهم أموالهم) (وذلك على الراجح من أقوال العلماء).

﴿فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُوا﴾ أحد الناس ﴿عَلَيْهِمْ﴾، وذلك ضَمانًا لوصول حقهم كاملاً إليهم حتى لا يُنكِروا ذلك، ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا﴾ أي: ويكفيكم أنّ الله شاهدٌ عليكم، ومُحاسِبُكم على ما فعلتم في أموالهم.

الآية ٧: ﴿لِلرِّجَالِ﴾ أي للذكور (صغارًا كانوا أو كبارًا): ﴿نَصِيبٌ﴾ شرعه الله لهم ﴿مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ﴾ من المال، ﴿وَلِلنِّسَاءِ﴾ كذلك ﴿نَصِيبٌ﴾ شرعه الله لهنّ ﴿مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ﴾ ﴿مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا﴾ أي: وذلك في أنصِبَةٍ محددة فرَضها الله عز وجل، سواء كان المال قليلا أو كثيرًا.

♦ وقد كان العرب في الجاهلية – مِن جبروتهم وقسوتهم – لا يُوَرِّثون النساء والصِبيان، ويجعلون الميراث كله للرجال الأقوياء، فأراد الرب الرحيم الحكيم أن يُشَرِّع لعباده شرعًا، يستوي فيه رجالهم ونساؤهم، وأقوياؤهم وضعفاؤهم.

♦ واعلم أنّ الميت إذا ترك شيئاً لا يَقبل التقسيم (كالدار الصغيرة، والجوهرة الواحدة، وغير ذلك)، فالراجح أنّ هذا الشيء يُباع ويُقسَّم ثَمَنُهُ على الوَرَثة، وذلك لتَعَذُّر قِسمتِه.

الآية ٨: ﴿وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينُ﴾ يعني: وإذا حضر قِسمة الميراث أقاربُ الميت (مِمَّن لا حقَّ لهم في التَرِكة)، أو حضرها أطفالٌ يتامى، أو حضرها أناسٌ مساكين ليس لهم مال: ﴿فَارْزُقُوهُمْ مِنْهُ﴾: أي فأعطوهم شيئًا من المال (على وجه الاستحباب) قبل تقسيم التَرِكة على أصحابها، ﴿وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾ يعني: وإن تَعَذَّرَ إعطاؤهم من المال: فقولوا لهم قولا حَسنًا، كاعتذارٍ جميل تَطِيبُ به نفوسهم، ولا تُهينوهم ولا تطردوهم.

الآية ٩: ﴿وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً﴾ أي: ولْيَخَفْ الذين لو ماتوا وتركوا بعدهم أبناء صغارًا ﴿ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ﴾ من الظلم والضياع، ﴿فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ﴾ فيمن تحت أيديهم من اليتامى وغيرهم، وذلك بحفظ أموالهم، وحُسن تربيتهم، ودَفْع الأذى عنهم، ﴿وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا﴾ أي قولاً موافقا للعدل والمعروف (لأنه كما تَفعلُ معهم: سَيُفعَلُ مع أبنائك بعدَ موتك، وكما تدين تدان).

الآية ١٠: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا﴾ أي يَأخذونها بغير حق (فقد أباح اللهُ للفقير أن يأخذ مِن مالهم (الذي تحت يديه) بقدر حاجته عند الضرورة (ويَرُدُّهُ إليهم متى تَيَسَّرَ له ذلك)، وكذلك يأخذ منه على قدر أُجْرَتِه (إذا كان يَستثمر لهم أموالهم) (وذلك على الراجح من أقوال العلماء).

♦ فمَن يَظلمهم ويأخذ مِن أموالهم بغير ما أحلَّ الله، فـ ﴿إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا﴾ أي يأكلون ما يُؤدي بهم إلى دخول النار يوم القيامة، ﴿وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ أي: وسيَدخلون ناراً مُحرِقة مُلتهِبة يُقاسون حَرَّها، ويأكلونها في بطونهم، فتتقطع بها أمعاءهم.

الآية ١١: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ﴾ ويأمركم ﴿فِي﴾ شأن ﴿أَوْلَادِكُمْ﴾ أنه إذا مات أحدٌ منكم (ذكراً كانَ أو أنثى)، وترك أولادًا (ذكورًا وإناثًا)، ولم يكن هناك وارثٌ غيرهم، فإنّ ميراثه كله يكون لهم، بحيث يكونُ ﴿لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ﴾ أي مثل نصيب ﴿الْأُنْثَيَيْنِ﴾.

♦ فعلى سبيل المثال: لو أنّ المَيِّت ترك ولدين وثلاث بنات، وترك لهم أربعة عشر ديناراً، فإننا سنفترض أن هذه التَرِكة عبارة عن مجموعة من الأسهُم، ثم نوزع هذه الأسهم على أولاد المَيِّت، بحيث يأخذ الولد سهمين، والبنت تأخذ سهماً واحداً، فبالتالي يكون نصيب الولدين كالآتي: (٢) (وهو عدد الأولاد × 2 (وهو عدد الأسهم لكل ولد منهم) = ٤ أسهم، ويكون نصيب البنات كالآتي: (3) (وهو عدد البنات (وهو عدد الأسهم لكل بنت منهنّ) = ٣ أسهم، وبهذا يكون مجموع هذه التَرِكة المفترَضة: (٤ أسهم للأولاد + ٣ أسهم للبنات = سبعة أسهم).

♦ ثم نَقسم الأربعة عشر ديناراً (وهي التَرِكة الحقيقية) على السبعة أسهم (وهي التَرِكة المفترَضة)، فبالتالي يكون نصيب السهم الواحد كالآتي: (١٤ دينار ÷ ٧ أسهم) = دينارين، وبما أن الولد له سهمان، إذن يكون نصيب الولد الواحد: (٢) × (٢) دينار = أربعة دنانير، ويكون نصيب البنت سهماً واحداً (أي: ديناران).

♦ فإذا ترك المَيِّت ولداً ذكراً فقط: فإن الولد يأخذ التَرِكة كلها، وأما إن ترك أولاداً ذكوراً فقط: فإن التَرِكة كلها تُقسَّم على الأولاد الذكور بالتساوي، (ويُلاحَظ في كل الحالات السابقة أن المَيِّت إذا ترك زوجته مع الأولاد، فإن الزوجة تأخذ ثُمُن التَرِكة أوّلاً (كما سيأتي)، ثم يُقسَّم الباقي على الأولاد).

♦ واعلم أن الجَنين (الذي مات أبوه وهو في بطن أمه) فإنه يَشترك مع الأبناء في تقسيم الميراث (أي يعتبرونه ضمن القِسمة، ويحفظون له حقه)، فإن عُلِمَ بالوسائل الحديثة أن الجنين أنثى: فإنهم يَحفظون لها سهماً واحداً، وإن عُلِمَ أنه ذكر: فإنهم يَحفظون له سهمين، وإن لم يُعلَم: (فإنه يُحفَظ له نصيب ذكر – أي سهمين –، فإذا اتضح بعد ذلك أنه أنثى: فإنّ السهم الآخر يُوَزَّع على جميع الأولاد كأنه تَرِكة منفصلة)، فإذا كانا (توأم)، ولم يُعلَم: (هل هم ذكور أو إناث؟)، فإنهم يحفظون لهما نصيب ذكرين (أي أربعة أسهم)، فإذا اتضح بعد ذلك أنهما (أنثَيان، أو أنثى وذكر): فإنّ الأسهم الزائدة تُوَزَّع على جميع الأولاد كأنها تَرِكة منفصلة.

♦ وأمّا إن ترك المَيِّت بناتٍ فقط، فقد قال تعالى: ﴿فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ﴾ أي: فإنْ مات وترك بناتٍ فقط، وكانت هذه البنات (اثنتين فأكثر): ﴿فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ﴾ أي: فيكون لهنّ ثُلُثَي التَرِكة، وتأخذ زوجة المَيِّت ثُمُن التَرِكة (إن كانت موجودة)، والباقي يأخذه العَصَبَة، والعَصَبَة: هم أقرباء المَيِّت من أَبيه، وهم – في أحَقيَّتِهم للميراث – على الترتيب التالي: (بُنُوَّة - أُبُوَّة – أُخُوَّة – عُمومة).

♦ والمقصود بالبُنُوَّة: (أبناء المَيِّت، ويليهم في الترتيب: أولاد (أبناءه الذكور) (وهم أحفاد الميت)، وهؤلاء لا يأخذون إلا إذا كان أبوهم مَيِّتاً، فيأخذون نصيبه.

♦ والمقصود بالأُبُوَّة: (أبو المَيِّت)، ويليه في الترتيب جدّه (وهو أبو والد الميت).

♦ والمقصود بالأُخُوَّة: (إخوة المَيِّت وأخواته الأشِقَّاء، ويليهم في الترتيب: إخوة المَيِّت وأخواته (الذين من جهة أبيه)، ويليهم: الأبناء الذكور (لإخوته الذكور الأشِقّاء)، ويليهم: الأبناء الذكور (لإخوته الذكور الذين من جهة أبيه) (واعلم أن أولاد الإخوة (سواء الأشِقّاء أو الذين من جهة أبيه) لا يأخذون إلا إذا كان أبوهم مَيِّتاً فيأخذون نصيبه).

♦ والمقصود بالعُمومة: (أعمام المَيِّت الذكور، ويليهم في الترتيب: الأبناء الذكور لأعمام المَيِّت (وهؤلاء لا يأخذون إلا إذا كان أبوهم مَيِّتاً فيأخذون نصيبه).

♦ ومعنى (ترتيبهم في أحَقيَّتِهم للميراث) أنه إذا وُجِدَ أحد هؤلاء (على الترتيب السابق) فإنه يَحجُب مَن بَعدَهُ في الترتيب، بمعنى أنَّ مَن بَعدَهُ في الترتيب لا يكون له حق في الميراث طالما أنَّ مَن قبله موجود،

(باستثناء والد المَيِّت، فإنّ له نصيباً مفروضاً وهو السدس، سواء كان أبناء المَيِّت موجودين أو لا، كما سيأتي).

♦ واعلم أيضاً أنّ هؤلاء العَصَبة ليس لهم قدْرٌ مُحَدَّد في الميراث، وإنَّما يأْخذون ما تبَقى من الورثة الذين لهم قدر مُحَدَّد في الشرع، بحيث يُقسَّم عليهم هذا المتبقي على أساس: (للذكر مثل نصيب الأُنْثَيَيْن).

﴿وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً﴾ يعني: وإن ترك المَيِّت بنتاً واحدة: ﴿فَلَهَا النِّصْفُ﴾: أي فلها نصف التَرِكة، والباقي يأخذه العَصَبة، وكذلك الحال إذا مات وترك (بنت ابنِهِ) وعَصَبة: فإنّ بنت الابن هنا تأخذ النصف (مثلما تأخذ بنت الميت إذا كانت موجودة)، والباقي يأخذه العَصَبة، وأما إنْ ترك (بنات ابنِهِ) وعَصَبة: فإنّ بنات الابن هنا يأخذنَ الثلثين (مثلما تأخذ بنات الميت إذا كُنّ موجودات)، والباقي يأخذه العَصَبة.

♦ واعلم أن المَيِّت إذا ترك (أمه وأباه)، وترك أيضاً أولاداً (ذكوراً كانوا أو إناثاً): فإنَّ لكل واحد مِن أبَويه سدس التَرِكة، والباقي للأولاد، كما قال تعالى: ﴿وَلِأَبَوَيْهِ﴾ أي لوالِدَي المَيِّت: ﴿لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِنْ كَانَ لَهُ وَلَدٌ﴾: أي هذا إذا كان عند المَيِّت أولاد (ذكوراً كانوا أو إناثاً).

♦ أمّا إذا مات وترك (أمه وأباه وزوجته)، وترك معهم بناتٍ فقط (أو بنتاً واحدة): فإنَّ البنات يَأخذنَ نصيبهنّ (كما سبق)، ويأخذ أبوه السدس، وأمه السدس، وزوجته الثُمُن، والباقي يَرِثُهُ أبوه (بالتعصيب)، لأنه يَحجُبُ مَن بَعدَهُ في ترتيب العَصَبة، ﴿فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ﴾ يعني: فإن لم يكن له أولاد نهائياً، وورثه أبواه فقط: فلأمه ثلث التركة، ولأبيه الباقي، ﴿فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ﴾ يعني: فإن كان للمَيِّت إخوة (اثنان فأكثر) (ذكورًا كانوا أو إناثًا): فلأمه السدس فقط، وللأب الباقي ولا شيء لإخوته، لأن الأب يَحجُبُ مَن بَعدَهُ في ترتيب العَصَبة، (ولَعَلَّ الحِكمة مِن أنّ نصيب الأم قد قَلَّ من الثلث إلى السدس – في حالة وجود إخوة للميت – وأنّ الأب قد ورث هذا السدس المتبقي: لأنّ والدهم هو الذي توَلَّى نِكاحَهُم، وكذلك يَتولى نكاح مَن لم يتزوج منهم، وهو الذي يُنفِقُ عليهم وليست أمّهم)، وأما إذا كانَ للميت أخ واحد فقط، أو أخت واحدة فقط: فإنَّ لأمه الثلث (كما هو الحال لو لم يكن له إخوة أصلاً) ولأبيه الباقي.

♦ واعلم أنه إذا كانت أم المَيِّت مَيِّتة، وكان للمَيِّت جدَّة، فإنَّ جدَّة المَيِّت ترث السدس فقط (سواء كان له إخوة أو لا)، أما لو كانت أم المَيِّت موجودة: فلا شيء لِجدَّة المَيِّت، وكذلك الحال إذا كان والد المَيِّت

مَيِّتاً، وكان للمَيِّت جدّ، فإن جدّ المَيِّت يَرث ما يَرثه والد المَيِّت، أما إذا كان والد المَيِّت موجوداً: فلا شيء لجدّ المَيِّت.

﴿مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ﴾ أي: وهذا التقسيم السابق للتَرِكة إنما يكون بعد إخراج وَصِيّة المَيِّت (كأن يُوصي قبل مَوتِه ببناء مسجد أو غير ذلك، بشرط أن تكون هذه الوصية لا تزيد على ثلث التَرِكة، فإن زادت على الثلث، فإن الورثة لا يُخرجون من الميراث إلا الثلث)، وكذلك بعد إخراج ما على المَيِّت مِن دَيْن، واعلم أن الراجح من أقوال العلماء: أنَّ مَن مات وعليه (زكاة أو حَجّ أو كان لم يَعتمِر أو كان عليه كفارة أو نذر)، فإن ذلك يُؤخَذ مِن تَرِكَتِه قبل تقسيم المِيراث (سواء أوصَى المَيِّت بذلك أو لم يُوصِ)، لأنَّ دَيْن الله أحق بالوفاء، وعندئذٍ يختار أهلُهُ مَن يَحُجّ عنه من هذا المال بالإنابة.

♦ فنَفِّذوا هذه الوصية المفروضة كما عَلَّمَكُم الله، ولا تُفَضِّلوا أحداً على أحد، فإنّ هؤلاء الوارثين هم ﴿آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ﴾ و (لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا) في دُنياكم وأخراكم، وقد كانت هذه الوصية ﴿فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ﴾ عليكم ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا﴾ بخلقه وبما ينفعهم ﴿حَكِيمًا﴾ في شرعه، وفي تدبيره لشؤونهم، فارضوا بقِسمته، فإنها قِسمة عليمٍ حكيم.

♦ واعلم أن الولد الكافر قد خرج مِن قوله تعالى: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ﴾، لأنه لا حَقّ له في الميراث، وذلك لقوله صلى الله عليه وسلم – كما في الصحيحين – : (لا يَرث المسلمُ الكافرَ، ولا الكافرُ المسلمَ)، وهذا يدل على أهمية السُنَّة، فهي – ليست فقط تُفَصِّل القرآن – وإنما هي أيضاً تُقَيِّد مُطْلَق القرآن، بمعنى أن القرآن هنا قد أطلقَ لفظ (أولادكم) بحيث يَشمل (المسلم منهم والكافر)، ولكنْ جاءت السُنَّة فقيَّدت الولد بأنه المسلم فقط وليس الكافر.

♦ وفي هذا رَدٌّ واضح على مَن يأخذون القرآن ويتركون السُنَّة، ومع ذلك فنحن نتلطف بهم ونسألهم: (هل تأكلون السمك مذبوحاً (قبل أن يموت)؟، أم تأكلونه (مَيْتَةً) بدون ذبْح؟)، فإذا كانوا يأكلونه بدون ذبح، فليأتونا بآيةٍ من القرآن تبيح أكْل السمك مَيتاً بدون ذبح!، ومع ذلك فهم يأكلونه مَيتاً على الرغم مِن أنّ القرآن لم يَحِلّ مَيْتَتُه، فقد قال تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ﴾، ولم يَستثنَ منها شيئاً، وإنما جاءت السُنَّة فأحَلَّتْ مَيْتَة السمك.

♦ فالسُنَّة توضح القرآن وتُكَمِّله، فهي مُنَزَّلة مثل القرآن سواءٌ بسواء، قال تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾، وقال تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ

اللَّهُ﴾، وقال تعالى: ﴿وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ (أي القرآن والسُنَّة)، والدليل على أنّ الحِكمة هي السُنَّة: قوْلُ الله تعالى لنساءِ النبي: ﴿وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ﴾، وإلاّ، فماذا كانَ يُتلَى في بيوت النبي صلى الله عليه وسلم غير القرآن والسُنَّة؟!

♦ وعندما تطاول بعض الخَلق على السُّنَّة ووضعوا فيها أحاديث مكذوبة، قيَّضَ اللهُ للسُنَّةِ رجالاً، وسَخَّرَ لها علماءً ليتتبعوا الأسانيد، وليُظهِروا للناس الأحاديث الصحيحة من غيرها، أليس هذا التوفيق دليلاً على أنّ اللهَ قد حفظ السُنَّة الصحيحة كما حفظ القرآن؟، وبما أنكم تقِرُّون بقول الله تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾، إذاً فدعونا نسأل: (أين وَرَدَ في القرآن عدد ركعات الصلوات وكيفية أدائها؟! وأين ورد مقدار الزكاة المفروضة؟!) (فتبيَّنَ مِن ذلك أنه لا استغناء عن السُنَّة مُطلقاً بأيّ وَجْهٍ من الوجوه).

♦ واعلم أنّ هؤلاء قد أخبر عنهم النبي صلى الله عليه وسلم قبل ظهورهم حينَ قال: ((ألاَ إني أوتِيتُ الكتاب – (وهو القرآن) – ومِثله معه – (وهي السُنَّة) – ألاَ يُوشِكُ رجلٌ شبعان على أريكَتِه يقول: (عليكم بهذا القرآن، فما وجدتم فيه مِن حلال فأحِلُّوه، وما وجدتم فيه مِن حرامٍ فحَرِّموه)، ألاَ لاَ يَحِلّ لكم لحم الحِمار الأهلي)) - (وهو الحمار المُستأنس الذي يعيش بين الناس، ويَحمل أثقالهم) (والحديث في صحيح الجامع برقم: ٢٦٤٣)، فعلى مَن يفعل ذلك أن يرجع إلى ربه الكريم الغفار بالتوبة، وليَحذر مِن تهميش السُنَّة، وذلك حتى لا يُحرَم من الشُرب من حوض النبي صلى الله عليه وسلم عند اشتداد الحر والعطش يوم القيامة.

****

٢. تفسير الربع الثاني من سورة النساء

الآية ١٢: ﴿وَلَكُمْ﴾ أيها الرجال ﴿نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ﴾ بعد وفاتِهنّ ﴿إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُنَّ وَلَدٌ﴾: أي هذا إذا لم يكن لهنّ أولاد (ذكورًا كانوا أو إناثاً)، ثم يُقسَّم النصف الآخر على عَصَبة الزوجة (إن وُجِدوا)، فإن قُدِّرَ أنها ماتت وتركَتْ (زوجها وأباها وأمّها): فيكون للزوج النصف، وأما النصف الآخر فيكون (ثلثه للأم، وثُلثاهُ للأب) (وهذه حالة استثنائية)، فإنْ ماتت وتركَتْ (زوجها وإخوتها الأشِقاء): فيكون للزوج النصف، وأما النصف الآخر فيُقَسَّم بين إخوتها على أساس: (للذكر مثل حظ الأُنْثَيَيْن)، فإن لم يكن لها عَصَبة نهائياً: فإن النصف الآخر يُقسَّم على ذوي أرحامها، عِلماً بأنّ ذوي الأرحام هم كل أقارب الميت الذين (ليس لهم قدر مُحَدَّد في الميراث، وكذلك ليسوا مِن العَصَبة) (مثل أخوال الميت وخالاته وعَمَّاته وأولادهم، وغيرهم).

﴿فَإِنْ كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ﴾: يعني فإن كان لزوجتكم أولاد (ذكورًا كانوا أو إناثاً) منكم أو مِن غيركم: ﴿فَلَكُمُ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ﴾ والباقي للأولاد، وذلك ﴿مِنْ بَعْدِ﴾ إنفاذ ﴿وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَا﴾ ﴿أَوْ دَيْنٍ﴾ عليهنّ يُؤدَّى لُمستحِقّيه.

﴿وَلَهُنَّ﴾ أي: ولأزواجكم ﴿الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ وَلَدٌ﴾ بحيث يُقسَّم هذا الرُبع بين الزوجات (إنْ كُنَّ أكثر من واحدة)، فإن كانت زوجة واحدة: كانَ الرُبع مِيراثًا لها، ويكون الباقي لعَصَبة الرجل، فإن لم يكن له عَصَبة نهائياً: فإن الباقي يُقسَّم على ذوي أرحامه، ﴿فَإِنْ كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ﴾: أي فإذا كانَ لكم أولاد (ذكورًا كانوا أو إناثاً)، مِنهُنّ أو مِن غيرهِنّ: ﴿فَلَهُنَّ﴾ أي فللزوجات ﴿الثُمُن مِمَّا تَرَكْتُمْ﴾ بحيث يُقسَّم هذا الثُمُن بين الزوجات (إن كُنَّ أكثر من واحدة)، فإن كانت زوجة واحدة: كان الثُمُن ميراثًا لها، والباقي للأولاد، وذلك ﴿مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ﴾.

﴿وَإِنْ كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَالَةً أَوِ امْرَأَةٌ﴾ يعني: وإن مات رجل (أو امراة) ولم يكن له ولد ولا والد (أي ليس له ابن ولا ابنة) (ولا ابن ابن، ولا ابنة ابن)، وكذلك ليس له أب (ولا والد أب)، وإنما: ﴿وَلَهُ أَخٌ﴾ واحد فقط (من جهة أمه، كما ورد ذلك في بعض القراءات الأخرى)، ﴿أَوْ﴾ كانت له ﴿أُخْتٌ﴾ واحدة فقط من جهة أمه أيضاً: ﴿فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ﴾: يعني فإنّ هذا الأخ يأخذ السُدس، وإن كانت أختاً واحدة: فإنها تأخذ السدس، ويُقسَّم الباقي (وهو الأسداس الخَمس الباقين) على عَصَبَته (بمعنى أنّ الباقي يُقسَّم على إخوته الأشقاء) (إن وُجِدوا)، وذلك على أساس: ﴿للذكر مثل حظ الأُنْثَيَيْن﴾، وكذلك

الحال إذا كان له إخوة من جهة أبيه، فإن الباقي يُقسَّم عليهم على أساس: (للذكر مثل حظ الأُنْثَيَيْن)، وأما إن كان له (إخوة أشِقاء، وكان له أيضاً إخوة من جهة أبيه): فإن الإخوة الأشقاء يأخذون الباقي، ولا شيء لإخوته الذين من جهة أبيه، لأن الإخوة الأشقاء أقوى منهم في درجة القرابة) (انظر ترتيب العصبة في تفسير الآية السابقة)، فإن لم يكن له إخوة (لا أشقاء ولا من جهة أبيه)، فإن الباقي يُقسَّم على الأعمام بالتساوي (إن وُجِدوا)، فإن لم يكن له عَصَبة نهائياً: فإن الباقي يُرَدّ إلى أخيه من أمه (الذي أخذ السدس)فَرْضاً.

﴿فَإِنْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ﴾: يعني إنّ كان الإخوة أو الأخوات (الذين من جهة أمه) أكثر مِن واحد: ﴿فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ﴾: أي فهُم شركاء في ثلث تَرِكَتِه، بحيث يُقسَّم بينهم ذلك الثلث بالمساواة، (لا فرق بين الذكر والأنثى)، ويكون الباقي للعَصَبة، فإن لم يكن له عَصَبة نهائياً: فإن الثلثين الباقِيَيْن يُرَدُّون إلى إخوته مِن أمِّه، ويُقَسَّم بينهم بالتساوي أيضاً.

♦ وأما إذا كَانَ – هذا الرَجُل الذي يُورَثُ كَلَالَةً – ليس له إخوة من جهة أمه، وإنما كان له فقط إخوة أشقاء (أو إخوة من جهة أبيه): فحُكمُهُم مذكور في آخر آية من هذه السورة، ومَضمونها أنه إنْ مات ولم يترك إخوة من أمه، وإنما ترك أختاً شقيقة (أو أختاً من جهة أبيه فقط) فإنها تأخذ نصف تَرِكَتِه، والباقي يُقسَّم على العَصَبَة، فإن لم يكن له عَصَبة نهائياً: فإنّ الباقي يُرَدّ إليها، فإن كان له أختان (شقيقتان، أو من جهة أبيه فقط): فلهما الثلثان مما ترك، والباقي يُقسَّم على العَصَبة، فإن لم يكن له عَصَبة نهائياً: فإن الباقي يُرَدّ إليهما، وأما إن ترك أخوة (ذكوراً وإناثاً) (أشقاء، أو من جهة أبيه): فإن التَرِكَة كلها تقسم عليهم على أساس: (للذكر مثل نصيب الأُنْثَيَيْن).

♦ وإذا ماتت امرأة – تُورَثُ كَلَالَةً – ولكنْ لم يكن لها أخوة من جهة أمها، وإنما تَرَكَتْ أخاً شقيقاً، (أو أخاً من جهة أبيها فقط): فإنه يَرِث جميع مالها، فإن تركتْ أخوة (ذكوراً وإناثاً) (أشقاء، أو من جهة أبيها): فإن التَرِكَة كلها تُقسَّم عليهم على أساس: (للذكر مثل نصيب الأُنْثَيَيْن).

♦ واعلم أن هذا الرَجُل – الذي يُورَثُ كَلَالَةً – إذا مات وترك (أمَّاً أو جدّة)، وكذلك ترك إخوة من جهة أمه، وكذلك ترك إخوة أشقاء: فإن الأم – أو الجدة – تأخذ السدس، ثم يُقسَّم الثلث على الإخوة الذين من جهة أمه بالتساوي (كما سبق)، ويُقسَّم الباقي على الإخوة الأشِقاء.

♦ وأما إن ترك (أمًّا أو جدّة)، وكذلك ترك إخوة أشقاء فقط، (أو إخوة من جهة أبيه فقط): فإن الأم – أو الجدة – تأخذ السدس، ثم يُقسَّم الباقي على الإخوة الأشقاء – أو الإخوة الذين من جهة أبيه – على أساس: (للذكر مثل حظ الأُنْثَيَيْن).

وذلك ﴿مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَى بِهَا﴾: أي يُوصَى وارثُ الميت بتنفيذها، ﴿أَوْ دَيْنٍ﴾ على الميت يُخرِجُهُ وارثه من التَرِكة، بشرط أن يكون الميت ﴿غَيْرَ مُضَارٍّ﴾: أي (بشرط ألاَّ يكون الميت قد أوْصَى بشيء فيه ضرر على الورثة)، فقد يُوصِي بأكثر من الثلث، أو يَزعم أنّ عليه دَيْن، وهو ليس عليه شيء، وإنما فعل ذلك حسداً للورثة أو بُغضاً لهم لا غير، فإنْ تبيَّنَ ذلك، فلا تُنَفَّذ الوصية، ولا يُسَدَّد الدَيْن، وتُقَسَّم التَرِكَة كلها على الورثة.

♦ واعلم أنّ لفظ (مُضارّ): هو اسم فاعل، بمعنى (مُضارِر)، فأُدْغِمَتْ الراء في الراء فصارت: (مُضارّ)، فيكون معنى: (غير مُضارّ): أي وهو غير مُريد الإضرار بالورثة، (ولَعَلَّ الحِكمة من تقديم لفظ الوصية على الدَيْن – مع أنَ الدَيْن يُخرَج قبل الوصية – أنه لا يُوجد مَن يُطالِب بالوصية فقد تُنسَى، وأما الدَيْن فإنّ أهله يُطالِبون به فلا يُنسَى ولا يُترَك).

♦ بهذا أوصاكم ربكم ﴿وَصِيَّةً﴾ نافعة لكم ﴿مِنَ اللَّهِ﴾ ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بما يُصلِحُ خَلقِه ﴿حَلِيمٌ﴾ لا يُعاجلُ مَن عَصاه بالعقوبة، ولكنْ لا يَغُرَّنَّكم حِلمَه فإنّ بَطْشه شديد وعذابه أليم، ألا، فسارِعوا بالتوبة.

الآية ١٣، والآية ١٤: ﴿تِلْكَ﴾ أي تلك الأحكام التي شَرَعها اللهُ في اليَتامَى والنساء والمواريث، هي ﴿حُدُودُ اللَّهِ﴾ أي شرائعه الدالَّة على أنها مِن عند عليمٍ حكيم، ﴿وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ فيَعمل بما شَرَعَهُ اللهُ لعباده على لسان رسوله: ﴿يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ﴾ – كثيرة الأشجار والقصور – ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ بمياهها العَذبة، ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾: أي باقين في هذا النعيم، لا يَخرجون منه أبداً ﴿وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾، ﴿وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ﴾ وذلك بإنكاره لشيءٍ من أحكامه وشرائعه، أو بتغييره لشيءٍ منها: ﴿يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا﴾ ﴿وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ أي عذابٌ يُهينه ويُذِلُّه في جهنم.

الآية ١٥، والآية ١٦: ﴿وَاللَّاتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِنْ نِسَائِكُمْ﴾ – وهُنّ المسلمات اللاتي وَقعْنَ في فاحشة الزنا – ﴿فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ﴾ أي فاطلبوا – أيها القُضاة – أن يَشهد عليهنَّ ﴿أَرْبَعَةً مِنْكُمْ﴾ أي أربعة مِن رجال المسلمين (مشهودٌ لهم بالصِدق والعدل)، ﴿فَإِنْ شَهِدُوا﴾ عليهنّ بالزنا: ﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ﴾ أي فاحبسوهنّ ﴿فِي الْبُيُوتِ﴾، بحيثُ لا يَخرجنَ مِن بيوتهنّ ﴿حَتَّى يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ﴾ أي حتى تنتهي حياتهنَّ

بالموت ﴿أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا﴾: يعني أو يَجعل اللهُ لَهُنَّ طريقاً للخَلاص مِن ذلك (بأنْ يُشَرِّع لهنَّ شَرعاً يَنسَخ ذلك الحُكم).

﴿وَاللَّذَانِ يَأْتِيَانِهَا مِنْكُمْ﴾ أي: وإذا وقع رجلٌ وامرأة – من المسلمين – في فاحشة الزنى، ﴿فَآذُوهُمَا﴾ بالضرب والهَجر والتوبيخ، ﴿فَإِنْ تَابَا﴾ عمَّا وقع منهما ﴿وَأَصْلَحَا﴾ أي فعَلا الأعمال الصالحة: ﴿فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا﴾ ولا تؤذوهما ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّابًا﴾ على عباده التائبين، ﴿رَحِيمًا﴾ بهم، إذ وفَّقهم للتوبة وقَبِلَها منهم.

♦ واعلم أنّ هذا الحُكم – وهو الحبس والأذى – كان في بدء الإسلام، ثم نُسِخَ بما شَرَعَ اللهُ ورسوله بعد ذلك (وهو الرَّجْم حتى الموت – للمتزوج – والجلدُ مائة جلدة، مع إخراج الزاني والزانية من بلدهما لمدة عام – وذلك لغير المتزوج).

الآية ١٧: ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ﴾: يعني إنّما يَقبل اللهُ التوبة من الذين يرتكبون المعاصي والذنوب ﴿بِجَهَالَةٍ﴾: أي بجهلٍ منهم لِسُوء عاقبة هذه الذنوب، وبجهلهم بقدْر ربهم الذي عصوه، ولكنْ بشرط: ﴿ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ﴾ فلا يُؤخرون التوبة ولا يُسَوِّفونها (يعني لا يقول العبد: سوف أتوب، لأنّه لا يَضمَن أن يُمهِلَهُ اللهُ ليتوب)، ﴿فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾: أي يَقبل توبتهم، ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا﴾ بضَعف عباده ﴿حَكِيمًا﴾ يضع كل شيء في موضعه اللائق به، ومِن ذلك قبول توبة مَن عصوه بجَهالة (لا بعنادٍ ومُكابرةٍ)، ثم تابوا من قريب.

الآية ١٨: ﴿وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ﴾: يعني: وليس قَبول التوبة ﴿لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ﴾ أي يُصِرُّون على فِعل المعاصي ولا يتوبون منها، ثم يَظلون على ذلك ﴿حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ﴾ فهذا لا تُقبَل توبته، ﴿وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ﴾ فأولئك أيضاً لا تُقبَل توبتهم عند الاحتضار، ﴿أُولَئِكَ﴾ المُصِرُّون على المعاصي إلى أن ماتوا، والجاحدون الذين يأتيهم الموت وهم كُفار ﴿أَعْتَدْنَا﴾ أي أعَدَّ اللهُ ﴿لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾.

الآية ١٩: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهًا﴾ أي لا يجوز لكم أن تجعلوا زوجات آبائكم مِن جُملة تَرِكَتِهم، فتتصرفوا فيهنّ بالزواج منهنّ، أو بتزويجهنّ للآخرين، وهنّ كارهاتٌ لذلك كله، ﴿وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ﴾: أي ولا تمنعوهنّ من الزواج، حتى لا تضطر هذه المرأة المظلومة إلى إعطائكم شيئًا مما وَرِثْتُهُ من ميراث آبائكم، حتى تتخلص مِن هذا الظلم والتحكم.

♦ وكذلك لا يجوز للزوج إذا كره زوجته أن يُضايقها حتى تفتدي منه ببعض مَهرها ﴿إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ﴾ كالزنى، أو أن تتكبَّر الزوجة على طاعة الزوج، وتتمرد عليه، ولا تعطيه حقه في المعاشرة بالمعروف، فحينئذٍ يجوز للزوج أن يضايقها حتى تفتدي منه بمهرها حتى يُطلقها، وذلك حتى لا يكون قد تضرَّر من الناحيتين: (مِن سُوء عِشرَتها، ومِن دفْع مهرها إذا طلَّقها)، إذ إنها هي البادئة بالضرر وليس هو، ومع ذلك: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ أي: ولتكن مصاحبتكم لنسائكم مَبنية على التكريم والمَحبة واللطف، وأداء ما لهنّ من حقوق.

♦ واعلم أنَّ مِن المعاشرة بالمعروف: ألاَّ يَعبس في وجهها بغير ذنب، وأن يكون ليِّناً ورفيقاً في القول، ليس فظاً ولا غليظاً، ولا مُظهِراً مَيْلاً إلى غيرها، وأن يسألها عن اسمٍ تحبه لينادِيها به، وألاَّ يَقلْ لها على سبيل الاحتقار: (أنتِ ناقصة عقل ودين)، فليتق الله ولْيَفهم أنَّ نُقصان العقل عند المرأة إنما يكونُ بسبب تغليبها العاطفة على العقل، وذلك حتى يَتغلَّب على طبْعها صفة الحنان، فيتسِّع بذلك قلبُها لهموم زوجها، لتكونَ خيرَ مُهوِّنٍ له على مَشقة الحياة، وأما نقصان الدين عندها: فلأنها تمتنع عن الصلاة في أيام حَيْضها، وليس ذلك بإرادتها.

﴿فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ﴾ لِسُوء خُلقهنّ أو بَذاءة لسانهنّ أو غير ذلك: فاصبروا عليهنّ ولا تطلقهوهنّ ﴿فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ أي: فلَعَلَّ الله أن يجعل في بقائها خيراً كثيراً لكم (فبسبب صبركم عليهنّ وتقوى الله فيهنّ: قد يُذهِبُ اللهُ ذلك الكُره من نفوسكم، ويُحِلّ مَحَلَّهُ الحب والمَوَدَّة، وقد تُرزَقونَ منهنّ بولدٍ ينفعكم).

♦ واعلم أن هذه الآية قد تضمنتْ إبطال ما كانَ شائعاً بين الناس قبل الإسلام من الظلم اللاحق بالنساء، فقد كان الرجل إذا ماتَ وترك زوجته: وَرِثها أكبر أولاده (مِن غيرها)، فإن شاء زَوَّجَها وأخذ مَهرها ممن سيتزوجها، وإن شاء أبقاها عنده، حتى تعطيه بعض مالها ليتركها وشأنها، فجاء الإسلامُ فرفع ذلك الظلم عن المرأة، فكَرَّمها وأعطاها حقوقها.

الآية ٢٠، والآية ٢١: ﴿وَإِنْ أَرَدْتُمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَكَانَ زَوْجٍ﴾: يعني وإن أردتم طلاقَ زوجةٍ واستبدالها بأخرى، ﴿وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنْطَارًا﴾: أي وكنتم قد أعطيتم مَن تريدون طلاقها مالاً كثيرًا (مهرًا لها): ﴿فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا﴾ ﴿أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا﴾: يعني أتأخذونه كذبًا وافتراءً واضحًا؟، ﴿وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ﴾ أي: وكيف يَحلُّ لكم أن تأخذوا من المهر الذي أعطيتموهنّ؟ ﴿وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى

بَعْضٍ﴾: أي وقد استمتع كلٌ منكما بالآخر بالجماع، ﴿وَأَخَذْنَ مِنْكُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا﴾: أي وقد أخذتْ زوجاتكم منكم عهداً مؤكَّداً من إمساكهنّ بمعروف أو تسريحهنّ بإحسان.

♦ واعلم أن المقصود بالميثاق الغليظ هوعقد النكاح، إذ يقول الزوج: نكحتُها على مبدأ: (إمساك بمعروف أو تسريح بإحسان)، فأين التسريح بإحسان إذا كان يضايقها حتى تتنازل عن مهرها أو عن شيءٍ منه؟!، هذا هو ما أنكَره الله تعالى بقوله: (وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ)؟ إذ هو استفهام استنكاري لفظاعة هذا الأمر وخروجه عن اللياقة والأدب.

الآية ٢٢: ﴿وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ﴾ (فبهذه الجُملة حُرِّمَتْ امرأة الأب على الابن – إذا طلقها الأب أو مات عنها، حتى ولو لم يدخل بها –، فبذلك أصبحت زوجة الأب ضِمن المُحَرَّمات المذكورة في الآية التي بعد هذه) ﴿إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾: يعني إلا ما قد مضى منكم في الجاهلية قبل هذا التحريم، فهذا مَعفو عنه بالإسلام (بشرط التخلي عنه وعدم المُقام عليه)، بمعنى أنّ مَن فعل ذلك قبل إسلامه، ثم بلغه التحريم: فعليه أن يفارق زوجة أبيه، فإنها لا تَحِلّ له، وعليه أن يُعطِيَها حقها (المُؤخَّر)، كما هو الحال في طلاق أيّ امرأة، وأما ما يتعلق بالأولاد الذين وُلِدوا منها فإنهم مَنسوبون إليه، ومنسوبون إليها أيضاً (رغم الفِراق التي حدث).

﴿إِنَّهُ﴾ أي زواج الأبناء مِن زوجات آبائهم في الجاهلية ﴿كَانَ فَاحِشَةً﴾: أي كانَ أمراً قبيحاً يَعظُمُ قبْحه ﴿وَمَقْتًا﴾: أي وكان أمراً بَغيضاً يَكره اللهُ فاعله ﴿وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ أي وكان بئس الطريق والمنهج ما كنتم تفعلونه في جاهليتكم.

♦ واعلم أن المقصود بلفظ ﴿آبَاؤُكُمْ﴾: (الأب وإن عَلا)، بمعنى أنه تَحْرُم زوجة الجد أيضاً على الابن وعلى الحفيد.

****

٣. تفسير الربع الثالث من سورة النساء

الآية ٢٣: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ﴾: أي حَرَّم اللهُ عليكم نكاحَ أمّهاتكم (ويدخل في ذلك الجدَّات مِن جهة الأب والأم)، ﴿وَبَنَاتُكُمْ﴾ (ويدخل في ذلك الحفيدات مِن جهة الابن والابنة)، ﴿وَأَخَوَاتُكُمْ﴾ (سواء الشقيقات أو اللاتي من جهة الأب أو اللاتي من جهة الأم)، ﴿وَعَمَّاتُكُمْ﴾ وهُم: أخوات آبائكم، وأخوات أجدادكم أيضاً، ﴿وَخَالَاتُكُمْ﴾ وهُم: أخوات أمهاتكم، وأخوات جدّاتكم أيضاً، ﴿وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأُخْتِ﴾ (ويدخل في ذلك حَفِيدات الإخوة والأخوات)، ﴿وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ﴾ ﴿وَأَخَوَاتُكُمْ مِنَ الرَّضَاعَةِ﴾، واعلم أن النبي صلى الله عليه وسلم قد أخبر – كما في الصحيحين – أنه (يَحرُمُ من الرِّضاع ما يَحرُمُ من النَسب)، فكُل امرأة حُرِّمَتْ مِن الأقارب: حُرِّمَ مثلها مِن الرضاعة، بمعنى أنه كما حُرِّمَتْ عليه أمُّه التي ولدته، فإنّ أمَّه التي أرضعته حرامٌ عليه.

♦ وكذلك فإنّ أيّ بنت رَضَعَتْ من زوجته فهي حرامٌ عليه (لأنها أصبحت ابنته من الرضاعة)، واعلم أنّ ابنته من الرضاعة هذه تَحْرُمُ أيضاً على أخيه (لأنه أصبح عَمَّها من الرضاعة)، وكذلك يَحرُم على هذه البنت: (أخو أمها التي أرضعتها) لأنه أصبح خالها من الرضاعة.

♦ وكذلك يَحْرُم على الرجل أخواته من الرضاعة (وهُم: بنات هذه المرأة التي رضع منها)، لكنهنّ لا يَحرُمْنَ على إخوته من النسب، وكذلك يَحرُم على الرجل خالاته من الرضاعة (وهُم: أخوات أمه التي أرضعته)، وكذلك يَحرُم عليه عمّاته من الرضاعة (وهُم: أخوات زوج المُرضِعة)، وكذلك يَحرُم عليه بنات إخوته من الرضاعة، وكذلك يَحرُم عليه بنات أخواته من الرضاعة، وأما بالنسبة لزوج المُرضِعة: فإنّ أخوات هذا الطفل الذي رضع من زوجته: لا يَحْرُمْنَ عليه.

♦ ولكن اعلم أنه يُشترَط لهذا التحريم السابق أن يكون الطفل قد رضع منها خمس رضعات فأكثر (كما ثبت ذلك في السُنَّة)، وكذلك أن يكون عُمره لا يزيد عن سنتين (وهما الحَوْلان الكاملان)، أما إذا كانَ عدد الرضعات أقل من خمس، أو كانَ الطفل حينها أكبر من سنتين: فلا يَحرُم عليه أحد بسبب هذه الرضاعة، ويُلاحَظ أنّ الأخ من الرضاعة لا يَرث.

♦ وحُرِّمَ عليكم كذلك: ﴿وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ﴾ سواء دخلتم بنسائكم، أو لم تدخلوا بهنّ، ﴿وَرَبَائِبُكُمُ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُمْ مِنْ نِسَائِكُمُ اللَّاتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ﴾ أي: ويَحرُم عليكم بنات نسائكم (مِن غيركم) اللاتي يَتربَّيْنَ غالبًا في بيوتكم وتحت رعايتكم، ولكنْ بشرط: (الدخول بأمهاتهنّ)، ﴿فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا دَخَلْتُمْ بِهِنَّ

﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾: يعني فإن لم تكونوا دخلتم بأمهاتهنّ وطلقتموهنّ أو مُتْنَ قبل الدخول: فلا جناح عليكم أن تنكحوهنّ، ﴿وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمْ﴾ أي: ويَحرُم عليكم زوجات أبنائكم (سواء دخل الابن بها أو لم يدخل)، وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ﴾ (أي: ليس الذين تَبَنّوتموهم قبل الإسلام)، وكذلك يَحرُم على زوج المرضعة أن يَتزوج امرأة ابنه من الرضاعة (وابنه من الرضاعة: هو الطفل الذي رضع من زوجته).

♦ وحُرِّمَ عليكم كذلك: ﴿وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ﴾ سواء كانوا أخواتكم من النَسَب أو كانوا أخواتكم من الرِضاعة ﴿إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ يعني إلا مَن كانَ قد تزوج أختين في الجاهلية – قبل هذا التشريع –، فإنه مَعفو عنه، بشرط عدم الإقامة عليه (وحينئذٍ يختار الزوج منهما مَن كانت تطيعه وتصاحبه بالمعروف، ويُفارق الأخرى بعد أن يُعطيَها حقها)، واعلم أنه لا يجوز كذلك الجَمع بين المرأة وعمتها أو المرأة وخالتها (كما ثَبتَ ذلك في السُنَّة)، ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ أي: وقد كتبَ اللهُ على نفسهِ أنه غفورٌ رحيم.

الآية ٢٤: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ﴾ أي: ويَحرُمُ عليكم كذلك نكاح المتزوجات من النساء ﴿إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾: يعني إلا مَنْ أسرتُم منهنّ في الجهاد، فإنه يَحِلّ لكم نكاحهنّ، ﴿كِتَابَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾: أي كتب اللهُ عليكم تحريم نكاح هؤلاء المُحرَّمات ﴿وَأُحِلَّ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكُمْ﴾ أي: وأجاز لكم نكاح أيّ امرأة (غير هذه المُحرَّمات) ممَّا أحَلَّهُ الله لكم، بشرط ﴿أَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُمْ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ﴾: يعني أن تطلبوا بأموالكم العِفَّة عن فِعل الحرام، ﴿فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ﴾: أي فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ مِن زوجاتكم بالنكاح الصحيح (لأنّ هذه الآية - والتي قبلها – كانت تتحدث عن النكاح، وعن ذِكر مَن يَحرُم نكاحُها ومَن تَحِلّ)، وذلك بدءاً من قوله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ﴾، إلى قوله تعالى: ﴿وَأُحِلَّ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكُمْ أَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُمْ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ﴾، وفي هذا رَدٌّ واضح على مَن يتجرأون على دين رب العالمين، ويَستحِلُّون ما يُسَمُّونه بـــ (نِكاح المُتعة)، وهو في أصلِهِ زنا، وإنما أوقعَهم في هذا الإثم العظيم: سُوءُ فَهمِهم، واتِّباعُ أهوائهم.

﴿فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً﴾: أي فأعطوا زوجاتكم مُهورهنّ، التي فرض اللهُ لهنّ عليكم، كما قال تعالى: ﴿وَآتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً﴾، ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَاضَيْتُمْ بِهِ مِنْ بَعْدِ الْفَرِيضَةِ﴾ أي: ولا إثم عليكم فيما تمَّ التراضي به بينكم – أيها الأزواج - من الزيادة أو النقصان في المهر، بشرط الاتفاق على مهرٍ محدد في البداية، وذلك ضماناً لحق الزوجة، بحيثُ يَرجع الأمر إليها، فتَرَى: هل هذا الزوج يتقي اللهَ

فيها ويعاملها معاملةً طيبةً يَستحق بسببها أن تتنازل له عن المهر (كله أو بعضه)، أو لا يستحق ذلك ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا﴾ بأحوالكم ﴿حَكِيمًا﴾ فيما شرَّعه لكم، ليَحفظ لكم حقوقكم.

الآية ٢٥: ﴿وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلًا أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ﴾ أي: ومَن لا قدرة له على مهور الحرائر المؤمنات: ﴿فَمِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ﴾: أي فله أن يَنكح غيرهنّ مِن الفتيات المؤمنات المملوكات (الإماء)، ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ﴾ أي بحقيقة إيمانكم، ﴿بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ﴾ يعني: فأصل البشر: (آدم وحواء)، والباقي مِن نَسلهم (سواء الحرائر أو المملوكات).

﴿فَانْكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ﴾: أي فتزوجوا هؤلاء المملوكات بموافقة أهلهنّ، ﴿وَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ أي: وأعطوهنّ مُهورهنّ ﴿بِالْمَعْرُوفِ﴾ أي: على ما تراضيتم به عن طِيب نفسٍ منكم، بشرط أن يَكُنَّ ﴿مُحْصَنَاتٍ﴾: يعني يَكُنّ بزواجهنّ هذا طالباتٍ للعِفة عن الحرام، ﴿غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ﴾ أي: وعليكم أن تجتنبوا اختيار الإماء المُجاهِرات بالزنى ﴿وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ﴾ أي: واجتنبوا أيضاً اختيار مَن يتخذون أصدقاء (للزنى) سِرًّا، ﴿فَإِذَا أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ﴾: أي فإذا تزوجْنَ وأتيْنَ بفاحشة الزنى: ﴿فَعَلَيْهِنَّ﴾ مِن الحدِّ ﴿نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ﴾: أي نصف ما على الحرائر ﴿مِنَ الْعَذَابِ﴾ وذلك في الشيء الذي يُمكن تنصيفه، وهو جلد خمسين جلدة للأمَة البِكر (لأنّ البِكر الحُرّة تُجلَد مائة) وتغريبها (أي إخراجها من قريتها) لمدة ستة أشهر فقط (بدلاً من سَنَة للبِكر الحُرّة)، أما الرَّجْم (الذي هو الموت) فإنه لا يُمكن تنصيفه، فلذلك ليس على الإماء المتزوجات رَجْم، إنما عليهنّ تعزير (أي تأديب وعقاب يَمنعهنّ عن فِعل الفاحشة بعد ذلك، وذلك بحسب ما يراه ولي الأمر مناسباً).

﴿ذَلِكَ﴾ أي ذلك الذي أُبيحَ لكم مِن نكاح الإماء إنما أُبيحَ ﴿لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنْكُمْ﴾ أي لِمَن خاف على نفسه الوقوع في الزنى، ﴿وَأَنْ تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَكُمْ﴾ أي: والصبر عن نكاح الإماء – مع العِفة – أوْلَى وأفضل، حتى يُغنيكم اللهُ من فضله، ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ﴾ لكم ﴿رَحِيمٌ﴾ بكم إذ أذِنَ لكم في نكاحهنّ عند العجز عن نكاح الحرائر.

الآية ٢٦: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ﴾: أي يريد اللهُ تعالى – بهذه التشريعات – أن يوضح لكم مَعالم دينه القويم وشَرْعِهِ الحكيم ﴿وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾: أي ويريد سبحانه أن يُرشدكم إلى طرق الأنبياء والصالحين الذين مِن قَبلكم، لتقتدوا بهم، فتفوزوا بالجنة مِثلهم، ﴿وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾: أي ويريد

سبحانه أن يتوب عليكم مِن فِعل السيئات، لترجعوا إليه بفِعل الطاعات، ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بما يُصلح شأن عباده، ﴿حَكِيمٌ﴾ فيما شرَعَه لهم.

الآية ٢٧: ﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾ ويتجاوز عن خطاياكم، ﴿وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ﴾ يعني: وأما الذين يَنقادون لشهواتهم ومَلذاتهم فيريدون لكم ﴿أَنْ تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا﴾: أي تنحرفوا عن الدين انحرافًا كبيرًا.

الآية ٢٨: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ﴾ أي: يريد الله تعالى - بما شرعه لكم مِن أحكام - أن يُيَسِّر عليكم، فقد ثبتَ أن النبي صلى الله عليه وسلم كانَ إذا خُيِّرَ بين أمرَين: يَختارُ أيْسَرَهما (ما لم يكن إثمًا)، إذ ليس معنى أنّ الدينَ يُسر، أنْ يفعل الإنسان ما حَرَّمه الله، وإنما الدين يُسر في أحكامه وتكاليفه، فعلى سبيل المثال: يقول النبي صلى الله عليه وسلم - كما في صحيح البخاري - : (ليكونَنَّ من أمّتي أقوامٌ يَستحِلّون الحِرَ - (والمقصود به الزنى) - والحرير - (أي يَستحِلون لِبْسَهُ للرجال) -، والخمر، والمَعازف) - (وهي الآلات الموسيقية)، فالذي أخبر بأن (الموسيقى) حرام، هو نفسه - صلى الله عليه وسلم - الذي قال: (إن الدين يُسر).

﴿وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا﴾ أي: وذلك التيسير في الأحكام - وخصوصاً في أمر النكاح - لأنكم قد خُلِقتم ضعفاء.

الآية ٢٩، والآية ٣٠: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ﴾: أي لا يَحِلّ لكم أن يأخذ بعضكم مالَ بعضٍ بغير حق ﴿إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً﴾: يعني إلا أن يكون أخْذ المال بطريقٍ حلال كالتجارة، وأن يكون ﴿عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ﴾ فهذا لا بأس بأخْذِه فإنه حلالٌ لكم، ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ أي لا تُؤَدُّوا بأنفسكم إلى الهَلاك، ولا يَقتل بعضكم بعضًا ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ في كل ما أمَرَكم به ونَهاكم عنه، ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ﴾ أي: ومَن يَفعل ما نَهى الله عنه - مِن القتل وأخْذ المال الحرام - ﴿عُدْوَانًا وَظُلْمًا﴾ أي بالعَمْد والإصرار - وليس بالسهو والخطأ - ﴿فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا﴾: أي فسوف نُدخِله نارًا يَحترق فيها ﴿وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾.

الآية ٣١: ﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾ ﴿وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلًا كَرِيمًا﴾ وهو الجنة، وبهذا قد ضمن الله تعالى لمن اجتنب الكبائر أن يُكفر عنه الصغائر من السيئات، وأن يُدخله الجنة، فلذلك

وَجَبَ علينا البحث عن هذه الكبائر لكي يَجتنبها المسلمون، وقد قال بعض العلماء أنّ عددها سَبع، وقال عبد الله ابن عباس رضي الله عنهما: (هي إلى السبعين أقرب منها إلى السَبع).

♦ وقد عرَّفها العلماء بأنها: كل ما وَرَدَ فيه حَدّ في الدنيا (كالقتل والزنا والسرقة)، أو جاء فيه وعيد في الآخرة (مِن عذابٍ أو غضبٍ أو تهديد أو لعْن فاعله)، مع التسليم بأنّ بعض الكبائر أكبر من بعض، علماً بأنّ صاحب الكبيرة لا يُكفَّر.

♦ وقد جمعها الإمام الذهبي في كتابه: (الكبائر)، وقد رأيتُ – إتماماً للفائدة – أن أسوقها إليك مُختصَرة ومُبسَّطة:

(الشرك بالله (ومنه الذبح لغيرِهِ تعالى) – قتل النفس – السِحر – ترْك الصلاة – مَنْع الزكاة – إفطار يوم من رمضان بلا عذر – ترْك الحج مع القدرة عليه – عقوق الوالدين – هَجْر الأقارب - الزنا – اللُّواط (وهو فِعل قوم لوط) – أكْل الربا – أكْل مال اليتيم وظلمه – الكذب على الله ورسوله (وكذلك القول على الله بغير علم) – الفرار من القتال – غش الإمام للرَعِيَّة وظلمه لهم – الكِبر والفخر والعُجْب والغرور - شهادة الزُّور (أي يَشهد على شيءٍ غير صحيح وهو يَعلم أنه كاذبٌ، وكذلك مَن يحتفل بأعياد غير المسلمين، أو يَحضر مجالس الباطل (كالغيبة والنميمة والكذب) وهو موافقٌ لهم) – شُرب الخمر – القِمار – قذف المحصنات (أي اتّهام نساء المسلمين بالزنا أو مقدماته، ومنه قول القائل: (يا ابن الزانية) أو ما شابَهَ ذلك) – الغُلول (وهو سرقة شيء مِن الغنيمة قبلَ توزيعِها) – السرقة – قطع الطريق).

♦ وكذلك من الكبائر: (اليمين الغَموس (وهو الحلف الكاذب الذي يغمس صاحبه في النار) – الظلم - المَكّاس (وهو الذي يَجمع الضرائب قهراً وظلماً، ولا يَدخل في ذلك ما يراهُ ولي الأمر في مصلحة الدولة، أو في مصلحة المسلمين) – أكْل الحرام بأيّ وجهٍ كان – أن يَقتل الإنسانُ نفسه – الكذب في غالب أقواله – القاضي السوء - أخذ الرِّشوة على الحُكم – تَشَبُّه النساء بالرجال وتَشَبُّه الرجال بالنساء – الدَّيُّوث (وهوالمُستحسِن على أهلِهِ التَبَرُّج والفاحشة) - القوّاد (وهو الساعي بين الاثنين بالفاحشة) – المُحَلِّل (وهو مَن يتزوج امرأة مُطلقة (ثلاث طلقات) بنِيَّةِ تحليلها لزوجها الأول)، والمُحَلَّل له (وهو الزوج المُطلِّق، الذي يُعطِي للمُحلِّل أجراً ليَفعل ذلك).

♦ وكذلك من الكبائر: (عدم الاستنجاء من البول (وعدم الاحتراز مِن رَذاذه أثناء التبول) – الرياء - تعَلُّم العِلم الشرعي طلباً للدنيا (إلا مَن كانَ ليس له مصدر رزق إلا ذلك، كإمام المسجد والخطيب

والمُحَفِّظ، مع مراعاة أن يَنوي بذلك العلم: الدعوة إلى الله مع طلب الرزق) – كِتمان العلم – الخيانة – المَنَّان (الذي لا يُعطِي شيئاً إلا وتَفَضَّلَ به على مَن أعطَاه، سواء كانَ هذا التفضُّل باللسان أو بالقلب) – التكذيب بالقدَر – التجَسُّس على الناس – النَمَّام (وهو الذي يَنقل الكلام بين الناس بغرض الوقيعة بينهم) – اللَّعَّان (وهو الذي يُكثِر من لعْن الناس ولعْن الأشياء) – الغدْر وعدم الوفاء بالعهد – تصديق الكاهن والمُنَجِّم – نشوز المرأة على زوجها (أي تَمَرُّدها عليه، ومُعانَدَتِه وإسخاطه وعدم طاعته) – تصوير التماثيل).

♦ وكذلك من الكبائر: (اللَّطْم والنياحة – أذى الجار – أذى المسلمين وَشَتْمهم – التطاول على عباد الله الضعفاء – تطويل الثوب للرجال (فخراً وكِبراً) – لِبْس الحرير والذهب للرجال – هروب العبْد من سيده – فيمَن يُدْعَى (نَسَباً) إلى غير أبيه وهو يعلم أنه ليس أبيه (وكان راضياً بذلك) - الجدال بالباطل (أي يجادل وهو يعلم أنه على باطل، ولكنه يفعل ذلك اتّبَاعاً لهواه) – مَنْع الماء (الزائد عن حاجته) عن الآخرين – الغش ونقص الميزان – الأمْن من مَكْر الله – الإصرار على ترك صلاة الجمعة والجماعة من غير عذر – الإضرار في الوصية (وقد تقدم ذلك في آيات المواريث) – المكر والخديعة – مَن دَلَّ الأعداء على المسلمين – سَبّ أحد الصحابة رضوان الله عليهم).

الآية ٣٢: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ في المواهب والأرزاق وغير ذلك، ولكن انظروا إلى مَن هو أقلّ منكم في النعَم، وذلك حتى لا تحتقروا نعمة الله عليكم، واحرصوا على فِعل ما ينفعكم في الدنيا والآخرة، فقد جُعِلَ ﴿لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبُوا﴾ أي لهم نصيبٌ من الرزق (وذلك بحسب ما اكتسبوه من السَعي والأخذ بالأسباب)، ونصيبٌ من الثواب (بحسب ما اكتسبوه من الطاعات)، ونصيبٌ من العقاب (بحسب ما اكتسبوه من السيئات)، ﴿وَلِلنِّسَاءِ﴾ كذلك ﴿نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبْنَ﴾ من الأعمال، فبذلك رَدَّ سبحانه القضية إلى سُنَّتِهِ فيها وهي: (كَسْب الإنسان)، ونَهَى عن التمني والحسد وترْك العمل.

♦ ثم بَيَّنَ تعالى سُنَّةً أخرى في الحصول على المرغوب (ألاَ وهي الدعاء)، فقال: ﴿وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ﴾ أي: وادعوا اللهَ أن يُعطيكم من فضله مثلما أعطى غيركم (إن كانَ ذلك خيراً لكم)، (وذلك مع الدعاء لهم بالبركة)، فمَن سألَ ربه وألَحَّ عليه مُوقناً بإجابته سبحانه – لِمَا فيه الخير له –: فإنّ اللهَ يُوفقه للإتيان بالأسباب الصالحة، ويَصرف عنه الموانع والابتلاء، ويُعطيه بغير سببٍ إن شاء، فهو على كل شيءٍ قدير، ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ إذ هو سبحانه أعلم بما يُصلِحُ حالَ عبادِهِ فيما قسَمَه لهم، ولذلك وَزَّعَ

المواهب والقُدرات في خَلقه (بين الرجل والمرأة)، وذلك حتى يتكامل المجتمع، فالعاقلُ إذاً هو مَن يَحترم مَواهبَ الله في خَلقه.

♦ واعلم أنّ سبب نزول هذه الآية: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ أنَّ النساء قُلْنَ: (إننا لم يُكتَبْ علينا الجهاد، وأعطانا ربُّنا نصف الرجل من الميراث)، وقد أوضحَ اللهُ تعالى للمرأة أنها أخذتْ نصف الرجل لأنها محسوبة عليه، فهي لن تُنفِق على نفسها، بل سيُنفِق عليها الرجل، والمسألة بذلك تكون عادلة.

الآية ٣٣: ﴿وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ فَآتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا﴾ هذه الآية منسوخة بآيات المواريث.

الآية ٣٤: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى﴾ توجيه ﴿النِّسَاءِ﴾ ورعايتهنّ، وذلك ﴿بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾: أي بسبب ما خَصَّهم الله به من خصائص القوامة والتكليف، ﴿وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ﴾ أي: وبسبب ما أعطوهنّ من المهور، وكذلك بالإنفاق عليهنّ، ﴿فَالصَّالِحَاتُ﴾ المستقيمات على شرع الله – مِن صفاتهنّ – أنهنّ ﴿قَانِتَاتٌ﴾: أي مطيعات لله تعالى ولأزواجهنّ (في غير معصية الله)، و ﴿حَافِظَاتٌ لِلْغَيْبِ﴾: أي حافظاتٌ لكل ما يُؤتمَنّ عليه (وذلك في غياب أزواجهنّ) ﴿بِمَا حَفِظَ اللَّهُ﴾: أي وذلك بحِفظ الله تعالى لهنّ وإعانتهنّ على ذلك (لا مِن أنفسهنّ)، فإنّ النفس أمارة بالسوء، ولو وُكِلَت المرأة إلى نفسها: لا تستطيعُ حِفظَ شيءٍ وإنْ قَلّ، وإنما مَن يتوَكَّلْ على الله، فإنه يَكفيهِ ما أهَمَّهُ مِن أمْر دينه ودنياه، واعلم أنه يُفهَم مِن ثناء الله تعالى على هؤلاء الصالحات أنه يَجب على الرجل إكرام المرأة الصالحة، والإحسان إليها، والرفق بها لضعفها.

﴿وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ﴾ أي: واللاتي تخشون تكَبُّرهنّ عن طاعتكم: ﴿فَعِظُوهُنَّ﴾ بالكلمة الطيبة والمَوعِظة الحَسَنة، وبإعلامِهنّ الأشياءَ التي تُغضِبكم منهنّ، وبتخويفهنّ من العِصيان حتى لا يَقَعنَ في غضب الله ولعنتِه وعدم قبول أعمالهنّ، وحتى لا تضطروا إلى فِعل الأشياء التي تغضبهنّ، ﴿وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ﴾ يعني: فإن لم تنفع معهنّ النصيحة الطيبة، وأصرَرنَ على مَعصيتكم ومعاندتكم: فاهجروهنّ في الفِراش، ولا تُكلِموهنّ (إلاَّ لِضرورة)، وذلك حتى يَنتهيْنَ عن ذلك، ويَندمنَ على مُخالفتكم، فإن لم يُؤثر الهَجْر فيهنّ: ﴿وَاضْرِبُوهُنَّ﴾ ضربًا لا ضرر فيه، فلا تضربوهنّ على الوجه، ولا ضرباً يؤثر في عظمٍ أو

جلد، ﴿فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ﴾، وتُبْنَ عن عِصيانكم: ﴿فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا﴾: أي فاحذروا ظُلمهنّ فـ ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا﴾: يعني فإنّ الله العليَّ الكبير هو وليُّهن، وسوف يَنتقمُ مِمَّن ظلمهنَّ.

الآية ٣٥: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ﴾ يا أولياء الزوجين ﴿شِقَاقَ بَيْنِهِمَا﴾: يعني إنْ خِفْتُمْ حدوث خِلاف بين الزوجين يؤدي إلى فراقهما (بعد اتِّباع جميع الوسائل السابقة): ﴿فَابْعَثُوا﴾ إليهما ﴿حَكَمًا﴾ عدلاً ﴿مِنْ أَهْلِهِ﴾: أي مِن أهل الزوج، ﴿وَحَكَمًا﴾ عدلاً ﴿مِنْ أَهْلِهَا﴾: أي من أهل الزوجة؛ ليَنظرا ويَحكما بما فيه المصلحة لهما، فـ ﴿إِنْ يُرِيدَا﴾ أي هذان الحَكمان ﴿إِصْلَاحًا﴾ بين الزوجين، ويَستعملا الأسلوب الطيب في الصُلح، ويُخَوِّفا الزوجين من هَدم البيت وتشريد الأولاد: ﴿يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا﴾ أي بين الزوجين ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا﴾ لا يَخفى عليه شيءٌ من أمْر عباده ﴿خَبِيرًا﴾ بما تنطوي عليه نفوسهم.

****

٤. تفسير الربع الرابع من سورة النساء

الآية ٣٦، والآية ٣٧، والآية ٣٨، والآية ٣٩: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ﴾ وحده، وانقادوا له في جميع أوامره، واعلم أنّ العبادة قد عرَّفها ابن تَيْمِيَة رحمه الله بأنها: (هي اسمٌ جامع لكل ما يُحبه اللهُ ويَرضاه من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة)، وعَرَّفها ابن القَيِّم رحمه الله بأنها: (هي كمال الحب مع كمال الذل)، وحتى تُحَقِّق ذلك بإذن الله تعالى: لا بد أن تتذكر نِعَم الله عليك (حتى تحب الله تعالى)، ثم تتذكر أنك تقابل هذه النعم بالمعاصي (حتى تكره نفسك الأمَّارة بالسوء)، فحينها تذِلّ لله تعالى وتنكسر بين يديه قائلاً: (أبوءُ لك بنعمتك عليَّ وأبوءُ بذنبي)، هذه هي بداية الطريق إلى الله، لأنّ رؤية النعم ورؤية الذنوب تستوجبُ الذلَّ والانكسار والفقر التام بين يدي الله تعالى، والتوبة إليه سبحانه في كل وقت، فلا ترى نفسك إلا مُفلِساً، وأنه لو تخلى عنك سبحانه طرفة عين: لَهَلَكْتَ وخَسِرتَ خسارةً لا تُجبَرُ إلا أن يَتداركك اللهُ برحمته.

♦ ومِن لطيفِ ما يُذكَر أنَّ أحد الدُعاة كان يَنصح تلاميذه بأن يَكتبوا نِعَمَ الله في ورقة، ثم يَقلبوا الورقة ليَكتبوا ذنوبهم (منذ لحظة البلوغ) (حتى ولو كتبوها بطريقةٍ لا يَفهمها أحدٌ غيرهم)، ثم بعد ذلك يُقطِّعوا تلك الورقة أو يَحرقوها (المهم أن يَعترفوا بنعم الله عليهم، وأن يَعترفوا بذنوبهم)، وكانَ يُذَكِّرُهم بقول الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾.

♦ هذا، وقد جَمَعَ النبي صلى الله عليه وسلم بين رؤية النعم ورؤية الذنوب حينما كان يقول: (سبحان الله وبِحَمدِه أستغفرُ اللهَ وأتوبُ إليه)، عِلماً بأن (سبحان الله وبحمده) تعادل في المعنى (سبحان الله والحمد لله)، وقد كان أحد السلف دائماً يقول: (الحمد لله أستغفر الله)، فقال له أحد جُلَسائِه: (ألاَ تُحسِنُ غيرَ هذا؟)، فقال له: (بل أُحسِنُ الكثير، ولكنني رأيتُني أتقلبُ بين نعمةٍ وذنب)، فهو بذلك يُعِدُّ حَمداً كثيراً ليساعده في سؤال النعم أمام اللهِ تعالى، كما يُعِدُّ استغفاراً كثيراً ليساعده في سؤال الذنوب.

﴿وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ لا شِركاً أصغر (كالرياء والحلف بغير الله)، ولا شِركاً أكبر (كَشِرك العبادة)، فلا تُشركوا معه مَلَكاً ولا نبياً ولا ولياً ولا غيرهم من المخلوقين، الذين لا يَملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضراً، ولا موتاً ولا حياةً ولا نُشوراً (والنشور هو البعث بعد الموت)، واعلم أنّ اللهَ لا يَغفر أن يُشرَكَ به (إلا إذا تاب العبد من الشرك قبلَ موتِه).

﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ أي: وعليكم بتأدية حقوق الوالدين (وذلك بالقول الكريم اللَّيِّن، وبطاعة أمْرِهما – في غير معصية الله – وبالإنفاق عليهما، وإكرام صديقهما ومَن له تعلُّق بهما، وصلة رَحِمِهما، والدعاء

لهما، وطلب رِضاهما)، فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: (رضا الرب في رضا الوالدين، وسخطه في سخطهما) (والحديث في صحيح الجامع برقم: ٣٥٠٧)، فاعلم أنه لن يَرضى عنك الله سبحانه وتعالى حتى يَرضى عنك والداك (ولو كنتَ أعبَد أهل الأرض)، ﴿وَبِذِي الْقُرْبَى﴾ إحْسَانًا ﴿وَالْيَتَامَى﴾ ﴿وَالْمَسَاكِينِ﴾ وهم مَن لا مالَ لهم ولا مَصدَر رزق، وكذلك مَن لهم مَصدَر رزق (ولكنهم لا يَسُدُّون به كفايتهم وكفاية مَن يَعُولُونهُم)، ﴿وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى﴾ وهو الجار القريب منكم، واعلم أنّ الجار إذا كان من الأقارب، فإنّ له حق الجُوار وحق القرابة، ﴿وَالْجَارِ الْجُنُبِ﴾ وهو الجار البعيد عنكم، وكذلك الجار الذي ليس له قرابة، واعلم أنه كلما كان الجارُ أقربَ بابًا، كلما كان حقه أكثر تأكيداً، فينبغي للمسلم أن يتعاهد جاره بالهدية والدعوة، واللطف في الأقوال والأفعال، وعدم أذيَّتِه بقولٍ أو فِعل، ﴿وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ﴾ وهو الصاحب المُلازم الذي لا يُفارَق؛ كالزوجة والمُرافق في السفر والعمل وطلب العلم وغير ذلك، ﴿وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ وهو المسافر المحتاج للنفقة، ﴿وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ وهم المماليك من فِتيانكم وفَتياتكم.

♦ فمَن قام بهذه المأمورات، فهو الخاضع لأمْر ربه، المتواضع لعباد الله، الذي يُحبه الله، ومَن لم يقم بذلك فإنه عبدٌ مُعرضٌ عن ربه، غيرُ متواضعٍ للخَلق، ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا﴾ أي مُعجَباً بنفسه متكبرًا على الخلق ﴿فَخُورًا﴾: أي يَمدح نفسه على سبيل الفخر، فهذا الكِبر والفخر يَمنع هؤلاء من القيام بحقوق الله وحقوق الآخرين، ولهذا قال تعالى بعدها: ﴿الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ﴾ ﴿وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾: أي من المال والعِلم وغير ذلك، ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا﴾ أي عذاباً يُهينهم ويُذِلُّهم في جهنم، هُم ﴿وَالَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ﴾ أي لِيَمدحهم الناس ﴿وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ لأنهم لا يَرجون ثواباً عند الله تعالى بهذه الأعمال، فهذا مِمّا يَدعو إليه الشيطان ﴿وَمَنْ يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا﴾ – أي مُلازِمًا يأمره بالشر ويَنهاه عن الخير – ﴿فَسَاءَ قَرِينًا﴾: أي فهذا بئس المُلازِم والقرين، ﴿وَمَاذَا عَلَيْهِمْ﴾ يعني: وأيُّ ضَرَرٍ يَلحق بهم ﴿لَوْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ ﴿وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ﴾ بإخلاصٍ لله تعالى واحتسابٍ للأجر عنده؟!، ﴿وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا﴾ وسيُحاسبهم سبحانه على أعمالهم ونِيَّاتهم.

الآية ٤٠: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ أي لا يُنقِص أحدًا – مِن أجْر عمله – مِقدار ذَرَّة، بل ﴿وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا﴾ للمؤمن ﴿وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ﴾ أي: ويُعطي سبحانه مِن عِنده ﴿أَجْرًا عَظِيمًا﴾ – فضلاً منه سبحانه لمن يشاء من عباده، وهذا كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾.

الآية ٤١، والآية ٤٢: ﴿فَكَيْفَ﴾ يكون حال الناس يوم القيامة ﴿إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ﴾ وهو رسولها ليَشهد عليها بما عملتْ، ﴿وَجِئْنَا بِكَ﴾ أيها الرسول لتكونَ ﴿عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ أنك قد أبلغتَهم رسالة ربِّك، فـ ﴿يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الْأَرْضُ﴾ أي يتمنون لو أنّ الله يجعلهم والأرض سواء، فيَصيرون ترابًا، حتى لا يُبعَثوا، ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا﴾: أي وهم لا يستطيعون أن يُخفوا عن اللهِ شيئًا مما في أنفسهم، إذ ختم اللهُ على أفواههم، وشَهِدَتْ عليهم أعضاءهم بما كانوا يعملون.

♦ واعلم أن النبي صلى الله عليه وسلم قد بكى عندما قرأ عليه عبد الله بن مسعود هذه الآية، ولِذا يَحضرني هنا قول أحد الدُعاة: (فإذا كان الشاهدُ قد بَكى، فما بالُ المشهودِ عليهِ لا يَبكي؟).

الآية ٤٣: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ﴾ (وقد كان ذلك قبل نزول التحريم النهائي للخمر في كل حال).

﴿وَلَا جُنُبًا﴾ أي: ولا تَقربوا الصلاة إذا أصابتكم جَنابة (مِن جماعٍ أو احتلام)، وكذلك لا تَقربوا المساجد وأنتم على جَنابةٍ ﴿إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ﴾ يعني إلا إذا كنتم مارِّين بالمسجد – مِن بابٍ إلى باب – مُروراً بدون جلوس ﴿حَتَّى تَغْتَسِلُوا﴾.

♦ واعلم أنه قد ثبت عن عبد الله ابن عباس رضي الله عنهما أنّ المقصود بقوله تعالى: ﴿إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ﴾، أنهم المسافرون الذين تصيبهم جَنابة، فيتيَمَّمون ويُصلُّون، (وفي المسألة خِلاف في جَواز جلوس الجُنُب في المسجد).

﴿وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى﴾ أي كانَ بكم مرضٌ لا تَقدرون معه على استعمال الماء، ﴿أَوْ﴾ كنتم ﴿عَلَى سَفَرٍ﴾ ﴿أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ﴾: يعني أو قضى أحدكم حاجته ﴿أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ﴾: يعني أو جامَعتم زوجاتكم ﴿فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً﴾ للوضوء أو الغُسل: ﴿فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا﴾: أي فاضربوا بأيديكم وَجْهَ الأرض الطاهرة ﴿فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ﴾ وذلك بأن يَنوي العبدُ التيَمُم بقلبه ويُسمِّي، ثم يَضرب الترابَ بيدَيْه ضربة واحدة فقط، ثم يَنفخ في يَدَيْه، ثم يَمسَح بِهما وجهَهُ وكفَّيه فقط، وهذه الصفة سواء كان التيَمُم نيابةً عن الوضوء، أو كان نيابةً عن الغُسل.

﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا﴾ لا يؤاخذ المؤمنين على كل ذنب، ﴿غَفُورًا﴾ لذنوب التائبين، ولذلك لم يؤاخذهم عندما صَلُّوا وهم سُكارى، فغَفَرَ لهم، وأَنزل هذا القرآن تعليماً وهِدايةً لهم.

الآية ٤٤: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ﴾ وهم اليهود الذين أُعطاهم الله عِلماً من التوراة ﴿يَشْتَرُونَ الضَّلَالَةَ﴾: أي يَستبدلون الضلالة بالهدى، ويَتركون ما عندهم من الحُجَج والبراهين الدالة على صِدق رسالة النبي محمد صلى الله عليه وسلم، ﴿وَيُرِيدُونَ أَنْ تَضِلُّوا السَّبِيلَ﴾ أي: ويتمنون لكم – أيها المؤمنون المهتدون – أن تنحرفوا عن الطريق المستقيم؛ لتكونوا ضالين مثلهم.

الآية ٤٥: ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ﴾ – أيها المؤمنون – ولذلك أخبَرَكم بعداوة هؤلاء اليهود لكم، ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ وَلِيًّا﴾ يَتولَّى أموركم، ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ نَصِيرًا﴾ يَنصركم على أعدائكم.

الآية ٤٦: ﴿مِنَ الَّذِينَ هَادُوا﴾ أي: من اليهود فريقٌ ﴿يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ﴾: أي اعتادوا على تبديل كلام الله وتغييره عمَّا هو عليه (افتراءً على الله)، ﴿وَيَقُولُونَ﴾ للرسول صلى الله عليه وسلم: ﴿سَمِعْنَا﴾ قولك ﴿وَعَصَيْنَا﴾ أمْرك ﴿وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ﴾ أي: واسمع منَّا لا استطعتَ السماع، ﴿وَرَاعِنَا﴾ سَمْعَك، أي: افهم عنا وأفهمنا، ولكنهم يقولونها ﴿لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ﴾: أي يَلوون ألسنتهم بذلك، وهم يريدون الدعاء عليه بالرُعُونة (وهي الحُمق والطَيش)، ويريدون بذلك الطعن في دين الإسلام مِن خلال شخص الرسول صلى الله عليه وسلم.

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ بدلاً من "سَمِعْنا وعَصَينا"، وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا: ﴿وَاسْمَعْ﴾ بدون "غير مُسمَع"، وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا: ﴿وَانْظُرْنَا﴾ بدلاً من "راعِنا" ﴿لَكَانَ﴾ ذلك ﴿خَيْرًا لَهُمْ﴾ ﴿وَأَقْوَمَ﴾ أي وأعدل قولاً، ﴿وَلَكِنْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ﴾ أي: ولكنَّ الله طردهم من رحمته، بسبب جحودهم بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم، ﴿فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا﴾ إيماناً ﴿قَلِيلًا﴾ لا ينفعهم (كإيمانهم بموسى وهارون، والتوراة (التي أُنزِلَتْ على موسى)، والزَبور (الذي أُنزِلَ على داوود)، ولكنَّ كفرَهم بمحمدٍ صلى الله عليه وسلم أضاع هذا الإيمان، لأنّ مَن كفر برسولٍ من الرسل فقد كفر بسائر الرُسُل، كما قال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ﴾، ولم يقل: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ رسولهم﴾.

الآية ٤٧: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ – وهذه صِفةُ مَن كان عالماً بجميع التوراة – ﴿آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا﴾ من القرآن ﴿مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ﴾ من الكتب، لأنه يجب عليكم أن تكونوا مُبادرين إليه قبلَ غيركم، بسبب ما أنعم اللهُ به عليكم من العِلم والكتاب، ولهذا تَوَعَّدَهم اللهُ على عدم الإيمان فقال: ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْمِسَ

﴿وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَى أَدْبَارِهَا﴾: أي من قبل أن نمحو وجوهكم، ثم نجعل الوجه مكان القفا، والقفا مكان الوجه، ﴿أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ﴾: يعني أو نلعنهم – بِمَسخِهِم قِردَةً وخنازير – كما لعنَّا اليهود مِن أصحاب السبت، الذين نُهُوا عن الصيد فيه فلم ينتهوا، ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا﴾ أي نافذاً في كل حال، وهذا مِثل قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ .

♦ واعلم أنَّ قولَه تعالى: ﴿من قبل أن نطمسَ وجوهاً﴾ فيه إشارة إلى أنه متى وقع منهم إيمانٌ قبل الطَمْس: أخَّرَهُ اللهُ عنهم، وقد آمَنَ بعضهم كعَبدِ الله بن سَلَام وأصحابه، فرُفِعَتْ عنهم هذه العقوبة بسبب إيمانِ بعض علمائهم.

الآية ٤٨: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ﴾ أي لا يَتجاوز عَمَّن أشرك به في عبادته (إلا إذا تاب العبد مِن الشِرك قبلَ موتِه)، ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ﴾ – وهي الذنوب التي أقل مِن الشرك – فيَغفرها سبحانه ﴿لِمَنْ يَشَاءُ﴾ مِن عباده، ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَى إِثْمًا عَظِيمًا﴾ أي اختلق ذنبًا عظيمًا.

الآية ٤٩: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنْفُسَهُمْ﴾ وهم اليهود الذين يُثنون على أنفسهم وأعمالهم، ويَصفونها بالطُهر والبعد عن السُوء؟! ﴿بَلِ اللَّهُ﴾ تعالى هو الذي ﴿يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ﴾ مِن عباده، لِعِلمِهِ بحقيقة أعمالهم، ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ أي: ولا يُنقَصون من أعمالهم شيئًا، ولو كان مقدار الخيط الذي يكون في شق نَواة التمرة.

الآية ٥٠: ﴿انْظُرْ﴾ – أيها الرسول – ﴿كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ﴾ وهو سُبحانه المُنَزَّه عن كل ما لا يَليق به؟!، ﴿وَكَفَى بِهِ إِثْمًا مُبِينًا﴾ أي: وكفى بهذا الافتراء ذنبًا كبيرًا كاشفًا عن فساد عقيدتهم.

الآية ٥١: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ﴾ وهم اليهود، فإنهم ﴿يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ﴾: أي يُصَدقون ويُقِرُّون بصِحة عبادة كل ما يُعبَدُ من دون الله – من الأصنام والكَهَنة والسَّحَرة وشياطين الإنس والجن – تصديقاً يَحمِلهم على تحكيم غير شرع الله.

♦ واعلم أنّ الطاغوت هو كل ما يَعبُدُه الناس – مِن دون الله تعالى –، بشرط أن يكون هذا الطاغوت راضياً عن عبادة الناس له (لأنّ عيسى عليه السلام لم يكن راضياً عن عبادة النَصارَى له).

﴿وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: وهؤلاء اليهود يقولون لِمُشركي العرب (الذين لم يترل عليهم أيّ كتاب): ﴿هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا﴾: أي دينكم - يا مُشركي العرب – خيرٌ من دين محمد، وأنتم أفضلُ

طريقاً وأكثر هِداية - في سلوككم وحياتكم والاجتماعية – من أولئك الذين آمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم.

♦ مع أنَّ في كتابهم إبطالَ الشِرك وَهَدْمه، ولكنْ ما حَمَلهم على ذلك القول إلا الكفر والحسد وبُغض النبي محمد، فما أشدّ عنادهم وأقلّ عقولهم! فهل يُفَضَّلُ دينٌ قام على (عبادة الأصنام، وتحريم الطيِّبات، وإباحة الخبائث، وإقامة الظلم بين الخلق، وتسوية الخالق بالمخلوقين)، على دينٍ قام على (عبادة الرحمن وحده لا شريك له، وعلى صلة الأرحام، والإحسان إلى جميع الخلق – حتى البهائم –، وعلى إقامة العدل بين الناس، وتحريم الظلم والخبائث، والصِدق في جميع الأقوال والأعمال)؟!

♦ ويُلاحَظ هنا أنّ الله تعالى قال: ﴿وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا﴾، رَغمَ أنه كانَ مِن المُتوَقَّع أن يقول: ﴿وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا أنتم أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا﴾، أي بصيغة الخطاب، اتفاقاً مع سِياق الآية، ولكنه سبحانه أراد أن يُوضح أن اليهود يقولون ذلك القول أمام مُشرِكي العرب وفي غيبتهم، وهو ما يُسَمَّى: (حكايةً لِمعنى القوْل)، فكأنه تعالى حكى أن اليهود – حين تناجَوا فيما بينهم – قال بعضهم لبعض في شأن أهل مكة: (هؤلاء العابدون للأصنام أهدَى مِن محمدٍ وأصحابه).

الآية ٥٢: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ﴾ أي طردهم من رحمته، ﴿وَمَنْ يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا﴾ يَنصره، ويدفع عنه سُوء العذاب.

♦ واعلم أنه لا يجوز أن يقول الرجل لأخيه: (يا ملعون)، أو: (اللهم العن فلاناً) - طالما أنه مُسلم ناطقٌ بالشهادتين –، لأن اللعن هو الطرد من رحمة الله، فالرجل - الذي يقول هذا الكلام – قد حَكَمَ على أخيه بالطرْد من الرحمة، فليَحذر أن يقول ذلك حتى لا تُرَدّ الكلمة عليه فيُطرَد هو من الرحمة، فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: (إذا خرجتْ اللعنة مِن فِي – (أي مِن فم) – صاحبها: نظرتْ، فإن وَجَدَتْ مَسلكاً في الذي وُجِّهَتْ إليه، وإلاَّ عادت إلى الذي خرجتْ منه) (والحديث في صحيح الجامع برقم: ٥٠٢)، وهذه هي عقيدة أهل السُنَّة والجماعة: ألاَّ نلعنَ شخصاً بعينه، وألاَّ نَحكم عليه بالرحمة أو الشهادة أو الجنة أو النار، إلا مَن شَهد له اللهُ ورسوله بذلك.

الآية ٥٣: ﴿أَمْ لَهُمْ﴾ يعني: أم لهؤلاء اليهود ﴿نَصِيبٌ مِنَ الْمُلْكِ﴾؟ فيفضِّلون مَن شاءوا على مَن شاءوا بمجرد أهوائهم؟ وهذا استفهام استنكاري (أي ليس لهم ذلك) ﴿فَإِذًا لَا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا﴾ يعني: ولو أنه

قُدِّرَ أنَّ لهم نصيباً من المُلك: لَمَا أعطوا أحدًا منه شيئًا، ولو كان مقدارالنُّقرة التي تكون في ظهر نَواة التمرة، (وهي عبارة عن ثقب صغير يُضرَب به المثل في صِغَرِه)، وذلك لِشدة بُخلهم.

الآية ٥٤، والآية ٥٥: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾: يعني أم يحسدون محمدًا صلى الله عليه وسلم على ما أعطاه الله من نعمة النُبُوَّة والرسالة، ويَحسدون أصحابه على نعمة التوفيق إلى الإيمان واتِّباع الرسول والتمكين في الأرض، ويَتمنون زوال هذا الفضل عنهم؟، بل اللهُ يَختص برحمته من يشاء، وذلك ليس بغريبٍ على فضل الله تعالى ﴿فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا﴾: أي فقد أعطينا إبراهيم وذريته الكتاب (كَصُحُف إبراهيم والتوراة والزبور والإنجيل)، وأعطيناهم الحكمة (وهي السُنَّة التي كانت لأولئك الأنبياء يَتلقونها وَحياً مِن الله تعالى، وكلها عِلمٌ نافع وحُكمٌ صائبٌ سديد)، وكذلك أعطينا المُلك الواسع لبعضهم (كَداوودَ وسليمانَ عليهما السلام)، فإنعامُهُ تعالى لم يَزَلْ مستمرًا على عباده المؤمنين، كل هذا يَعرفه اليهود، فكيف يُنكِرون إنعامَهُ تعالى بالنُبُوَّة والنصر والمُلك لمحمد صلى الله عليه وسلم (أفضل الخلق، وأعظمهم مَعرفةً بالله وأخشاهم له)، ويَحسدونه على ذلك؟!

﴿فَمِنْهُمْ﴾: أي فمِن هؤلاء اليهود ﴿مَنْ آمَنَ بِهِ﴾: أي آمن بمحمد صلى الله عليه وسلم، وعمل بشرعه، كعبد الله بن سلام وأصحابه، ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ صَدَّ عَنْهُ﴾ أي: ومنهم مَن أعرض عنه ولم يَستجب لدعوته، ومَنَعَ الناس مِن اتِّباعِه، ﴿وَكَفَى بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا﴾: أي وحَسْبُكُم – أيها المكذبون – نار جهنم تُسَعَّر بكم (أي تُوقَدُ عليكم وتفورُ بكم) يوم القيامة.

الآية ٥٦: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا﴾ الواضحة ﴿سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا﴾: أي سوف نُدخلهم نارًا يُقاسون حَرَّها الشديد، ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ﴾ أي كلما احترقت ﴿جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾ أي لِيَستمر عذابهم وألَمُهم ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا﴾ لا يَمتنع عليه تحقيق ما تَوَعَّدَ به أعداءه، ﴿حَكِيمًا﴾ يُعذب مَن يَستحق العذاب.

الآية ٥٧: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ أي حدائق عجيبة، تجري أنهارُ الماء والعسل واللبن والخمر مِن تحت قصورها وأشجارها ﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ ﴿لَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ﴾ من كل أنواع الدَنَس الحِسيِّ كالبَول والحَيض، وكذلك مِن الدَنس المعنوي كالكذب وسُوء الخُلُق، ﴿وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا﴾ أي ظلا كثيفًا ممتدًا في الجنة يَحفظهم من الحر والبرد.

****

٥. تفسير الربع الخامس من سورة النساء

الآية ٥٨: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا﴾ سواء كانوا مؤمنين أو كفاراً، ﴿وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾ ﴿إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ﴾ أي: ونِعْمَ ما يَعظكم اللهُ به، فإنّ الحياة الكريمة تعتمد على أداء الأمانات والحُكم بالعدل، ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا﴾ لأقوالكم، ﴿بَصِيرًا﴾ بأعمالكم، وسيُجازيكم عليها (وقد خُتِمَتْ الآية بهاتين الصفتين للحَثّ على فِعل المأمور به، ولإيجاد مُراقبة الله تعالى في النفس، لأنّ مَن تَذكَّر أنّ الله تعالى يَسمع أقواله ويَرى أعماله: استقامَ في قوله فلم يَكذب، وفي عمله فلم يُفَرِّط).

الآية ٥٩: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ﴾ بالعمل بكتابه ﴿وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ بالعمل بسُنَّته، ﴿وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ أي: وأطيعوا وُلاةَ أمْركم – وهم الحُكَّام – في غير معصية الله، ﴿فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾: يعني فإن اختلفتم في شيءٍ بينكم، فأَرجعوا الحُكم فيه إلى كتاب الله تعالى وسُنَّة رسوله محمد صلى الله عليه وسلم، هذا ﴿إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ﴾ حق الإيمان ﴿بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآَخِرِ﴾، لأنّ ﴿ذَلِكَ﴾ أي الرَدّ إلى الكتاب والسُنَّة ﴿خَيْرٌ﴾ لكم من التنازع والقول بالرأي، ﴿وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ أي: وأحسن عاقبةً ومَآلاً في الدنيا والآخرة (لأنّ تأويل الشيء هو ما يَؤول إليه في آخر الأمر)، فحُكم الله ورسوله هو أحسن الأحكام وأعدلها وأصلحها للناس في أمْر دينهم ودُنياهم وأُخراهم.

الآية ٦٠: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى﴾ أولئك المنافقين ﴿الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آَمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ ومع ذلك فهُم ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا﴾ في فَصْل الخصومات بينهم ﴿إِلَى الطَّاغُوتِ﴾: أي إلى غير ما شَرَعَ اللهُ من الباطل، ﴿وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ﴾ أي بهذا الباطل، ﴿وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ﴾ بذلك ﴿أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ عن طريق الحق، وفي هذه الآية دليل على أن الإيمان الصادق يَقتضي الانقياد لشرع الله تعالى، والحُكم به في كل أمْر من الأمور.

الآية ٦١: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى﴾ الحُكم بـــ ﴿مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى﴾ تحكيم ﴿الرَّسُولِ﴾ ﴿رَأَيْتَ﴾ هؤلاء ﴿الْمُنَافِقِينَ﴾ الذين يُظهرون الإيمان ويُبطِنون الكفر ﴿يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا﴾: أي يُعرضون عنك، وكذلك يَصُدّون الناس عن اتّباع دينك.

الآية ٦٢: ﴿فَكَيْفَ﴾ يكون حال أولئك المنافقين ﴿إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ من المعاصي (ومنها تحكيم الطاغوت)؟، ﴿ثُمَّ جَاءُوكَ﴾ أيها الرسول مُعتذرين لِما صَدَرَ منهم و ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ﴾ لك

﴿إِنْ أَرَدْنَا﴾: أي ما قصَدْنا بتحاكُمِنا إلى غيرك ﴿إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا﴾: أي ما قصَدْنا بذلك إلاَّ الإحسان إلى المتخاصمين والتوفيق بينهم، وهم كَذَبة في ذلك، فإنَّ الإحسان كله في تحكيم الله ورسوله، قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾.

الآية ٦٣: ﴿أُولَئِكَ﴾ هم ﴿الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ﴾ حقيقة ﴿مَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ من النفاق ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ ﴿وَعِظْهُمْ﴾: أي وحَذِّرْهُم مِن سوء ما هم عليه، ﴿وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا﴾: أي قولاً يؤثر فيهم، ويُخوفهم تخويفاً شديداً.

الآية ٦٤: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ﴾ يعني إلا لِيُستجابَ لدعوته، وفي هذا دليل على وجوب طاعة الرسول صلى الله عليه وسلم فيما يأمر به وينهى عنه، وفي هذا أيضاً إثبات عِصمة الرُسُل – من الخطأ – فيما يُبلغونه عن الله، وفيما يأمرون به وينهون عنه؛ لأنّ الله قد أمر بطاعتهم طاعة مُطلقة، فلولا أنهم معصومون، ولولا أنهم لا يُشَرِّعون ما هو خطأ: لَمَا أمر بذلك مطلقاً.

♦ وأما قوله: ﴿بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ يعني إنّ الطاعة – التي تصدر من المؤمن المطيع – صادرة بقضاء الله وقدره وتوفيقه، ففيه إثبات القضاء والقدر، والحث على الاستعانة بالله، وبيان أنه لا يُمكِن للإنسان - إن لم يُعِنْهُ الله – أن يطيع الرسول، ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ﴾: أي ولو أن هؤلاء المنافقين ﴿إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ بفعل السيئات (ومنها التحاكم إلى الطاغوت، وترْكِهم لحكم رسول الله صلى الله عليه وسلم)، فلو أنهم حينها ﴿جَاءُوكَ﴾ أيها الرسول – في حياتك - تائبين معترفين بخطيئتهم ﴿فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا﴾.

♦ واعلم أن هذا المَجيء إلى الرسول صلى الله عليه وسلم مُختَصّ بحياته فقط؛ لأن السيَاق يدل على ذلك (ولأنّ الاستغفار من الرسول لا يكون إلا في حياته)، وإلاَّ، فلو أنَّ كل مذنب لا يُغفَرُ له إلا إذا أتى الرسول صلى الله عليه وسلم واستغفر له: لَمَا تابَ أحد، ولَلَزِمَ أن يَبقى الرسولُ حياً لِيستغفر للمذنبين، وأما بعد موته صلى الله عليه وسلم فإنه لا يُطلَبُ منه شيءٌ، لأنّ ذلك يكونُ شِركاً.

الآية ٦٥: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ﴾ أي: فوَرَبِّكَ، وهذا مِثل قول القائل مُهدداً: (أنا لن أقسم، ولكنْ لو لم تفعل كذا: سوف يَحدث كذا)، وهذا تأكيدٌ للقسم، فأقسم الله تعالى بنفسه الكريمة أن هؤلاء ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ حق الإيمان ﴿حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾: أي حتى يَجعلوك حَكَمًا فيما وقع بينهم من اختلاف (وذلك

في حياتك)، وأن يَتحاكموا إلى كتاب الله وسُنّتِك (وذلك بعد مماتك)، ﴿ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا﴾ أي ضِيقًا ﴿مِمَّا قَضَيْتَ﴾ لهم، بل ﴿وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾: أي وينقادوا انقيادًا تاماً لهذا الحُكم.

♦ وفي هذا دليل على أنه مِن صَميم الإيمان: تحكيم ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم (من الكتاب والسُنّة) في كل شأن من شؤون الحياة (مع الرضا والتسليم للحُكم الإلهي) حتى ولو لم يوافق هَوَى العبد.

الآية ٦٦، والآية ٦٧، والآية ٦٨: ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ﴾ أي: ولو أوجَبنا على هؤلاء المنافقين المتحاكمين إلى الطاغوت ﴿أَنِ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾: أي أن يَقتل بعضكم بعضًا (كما حصل ذلك لبني إسرائيل عندما تابوا من عبادة العجل)، ﴿أَوِ اخْرُجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ﴾ مُهاجرينَ في سبيلنا: ﴿مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ﴾: أي ما استجاب لذلك إلا عددٌ قليلٌ منهم، ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ﴾ أي: ولو أنهم استجابوا لما يُنصحون به من أوامر الله ونواهيه ﴿لَكَانَ﴾ ذلك ﴿خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا﴾ للإيمان في قلوبهم، وللطاعة على جَوارحهم (والجوارح هي أعضاء الإنسان)، ﴿وَإِذًا لَآتَيْنَاهُمْ مِنْ لَدُنَّا﴾: أي وحينئذٍ سنعطيهم مِن عندنا ﴿أَجْرًا عَظِيمًا﴾ في الدنيا والآخرة، ﴿وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾: أي ولأرشدناهم ووفقناهم إلى طريق الله القويم وهو الإسلام، وثَبّتناهم عليه، (ولذلك ينبغي للعبد عندما يقرأ في الصلاة قول الله تعالى: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾، أن يرجو من الله أن يُثبته على الإسلام حتى يَلقاه، وألاَّ يُضِلَّهُ بذنوبه).

الآية ٦٩، والآية ٧٠: ﴿وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ أي فَأُولَئِكَ سيكونون في صُحبة مَن أنعم اللهُ عليهم بالجنة ﴿مِنَ النَّبِيِّينَ﴾ ﴿وَالصِّدِّيقِينَ﴾ الذين كَمُلَ تصديقهم بما جاءت به الرُسُل (اعتقادًا وقولا وعملاً)، وكذلك مَن غلب عليهم الصدق في أقوالهم وأعمالهم، ﴿وَالشُّهَدَاءِ﴾ في سبيل الله ﴿وَالصَّالِحِينَ﴾، ﴿وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾ في الجنة، ﴿ذَلِكَ الْفَضْلُ﴾: أي ذلك العطاء الجَزيل إنما هو ﴿مِنَ اللَّهِ﴾ وحده، ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ عَلِيمًا﴾، فهو سبحانه يَعلم أحوال عباده، ويَعلم مَن يَستحقُّ منهم ذلك الثواب الجزيل (بسبب ما قام به من الأعمال الصالحة)، ومَن لا يستحق ذلك.

♦ ولذلك ينبغي للعبد عندما يقرأ في الصلاة قول الله تعالى: ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾، أن يَستشعر الرجاء والتذلل لله تعالى في أن يَجعله في الجنة مع الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ، وأن يستشعر كذلك – في قوله تعالى: ﴿أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ – أن الله هو الذي أنعم الله عليهم بالهداية والتوفيق والإعانة والتثبيت، والنجاة من الفتن والذنوب، وأنه هو الذي حَبَّبَ إليهم الطاعات، وَكَرَّهَ إليهم المعاصي، وليس ذلك مَهارةً منهم أو ذكاء، كما قال أحد أهل الجنة: ﴿وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنْتُ

مِنَ الْمُحْضَرِينَ﴾ أي لكنتُ من المُحضَرين في العذاب، فبذلك يرجو من ربه هذه النعمة التي ينجو بها من عذابه، ويَتنعم بها في الجنة.

الآية ٧١: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ﴾ بالاستعداد لعدوكم ﴿فَانْفِرُوا ثُبَاتٍ﴾: أي فاخرجوا لملاقاته جماعة بعد جماعة، ﴿أَوِ انْفِرُوا جَمِيعًا﴾: يعني أو اخرجوا لملاقاته مجتمعين.

الآية ٧٢، والآية ٧٣: ﴿وَإِنَّ مِنْكُمْ لَمَنْ لَيُبَطِّئَنَّ﴾: يعني وإنّ مِنكم لَنَفرًا يتأخر عن الخروج (لِمُلاقاة الأعداء) مُتثاقلاً وَيُثَبِّطُ غيره (أي يُلقي في نفوسهم الرغبة في التخلف، ويُحَبِّبه إليهم حتى يَتكاسلوا عن الخروج)، ﴿فَإِنْ أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ﴾: يعني فإن قُدِّر عليكم أن تُصابوا بقتلٍ أو هزيمة ﴿قَالَ﴾ - مستبشرًا - : ﴿قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ شَهِيدًا﴾: أي قد حفظني اللهُ حين لم أكن حاضرًا مع أولئك الذين وقع لهم ما أكرهه لنفسي، وَسَرَّه تخلُّفه عنهم، ﴿وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِنَ اللَّهِ﴾ بنصرٍ وغنيمة ﴿لَيَقُولَنَّ﴾ - حاسدًا متحسِّرًا - ﴿كَأَنْ لَمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ﴾ في الظاهر: ﴿يَا لَيْتَنِي كُنْتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾.

****

٦. تفسير الربع السادس من سورة النساء

الآية ٧٤: ﴿فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ﴾ أي يبيعون ﴿الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ ليستبدلوها ﴿بِالْآخِرَةِ﴾ ونعيمها الأبدي الذي لا تنغيص فيه ولا تعب (وهذا بعد أن يُطلَبُ منهم الجهاد من وَلِيّ الأمر – وهو حاكم البلد – دفاعاً عن دينهم، وعن وطنهم المسلم)، ﴿وَمَنْ يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ مُخلِصًا له، مُقبِلاً على عدُوِّه ﴿فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾.

الآية ٧٥: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ﴾؟ أي: وما الذي يَمنعكم – أيها المؤمنون – عن الجهاد في سبيل الله لِنُصرَة دِينه ونُصرَة عباده المُستضعَفين ﴿مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ﴾ الصغار ﴿الَّذِينَ﴾ اعتُدِيَ عليهم مِن أجل دِينهم، ولا حِيلةَ لهم ولا وسيلة، إلا أن يَستغيثوا بربهم، فـ ﴿يَقُولُونَ﴾: ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ﴾ – والمُراد بها هنا "مكة"– ﴿الظَّالِمِ أَهْلُهَا﴾: أي التي ظَلَم أهلها أنفسهم بالكفر وإيذاء المؤمنين، ﴿وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ﴾ أي مِن عِندك ﴿وَلِيًّا﴾ يَتولى أمورنا ويَكفينا ما أهَمَّنا، ﴿وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا﴾ يَنصرنا على الظالمين.

الآية ٧٦: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بالله ورسوله وصَدَّقوا بوعد الله ووعيده: ﴿يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي حتى تكونَ كَلِمَتُهُ تعالى هي العُليا – وذلك بأن يُعبَدَ وحده ولا يُعبَد معه غيرُه – وفي سبيل نُصرة الحق وأهله، ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بوحدانية الله تعالى وكفروا برسوله وبالدار الآخرة ﴿يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ﴾ أي يُقاتلون في سبيل نُصرة الشِرك وأهله، ومُساندة الظلم والطُغيان ونَشْر الفساد، ﴿فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ﴾ أي فقاتِلوا أهل الشِرك الذين يَنصرون الشيطان ويُطيعون أمْرَه، ﴿إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ﴾: يعني إنّ تدبير الشيطان لأوليائه ﴿كَانَ ضَعِيفًا﴾ فلا يَثبُت – هو وأولياؤه المشركون – أمام أهل الإيمان وأولياء الرحمن.

الآية ٧٧: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ﴾ - قبل الإذن بالجهاد –: ﴿كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ﴾ عن قتال أعدائكم من المشركين، ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾: أي وعليكم فقط أداء ما فرضه الله عليكم من الصلاة والزكاة، ﴿فَلَمَّا كُتِبَ﴾: أي فلما فُرِضَ ﴿عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ﴾ أي إذا جماعةٌ منهم قد تغير حالهم، فأصبحوا ﴿يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً﴾ ﴿وَقَالُوا﴾: أي وأعلنوا عَمَّا أصابهم من شدة الخوف، فقالوا: ﴿رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ﴾؟ ﴿لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾: أي هَلاَّ أمهلتنا إلى وقتٍ قريب (وذلك رغبةً منهم في متاع الحياة الدنيا)، ﴿قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ﴾، وسوف يتركه الإنسان في لحظةٍ خاطفةٍ مِن ليلٍ أو نهار، ثم يُقسَّمُ مالُهُ على ورثته، ويَتوارى هو في التراب، ولن ينفعه إلا عمله

الصالح، ﴿وَالْآخِرَةُ﴾ وما فيها مِن نعيمٍ ﴿خَيْرٌ﴾ وأبقى ﴿لِمَنِ اتَّقَى﴾ ربه، فعَمِلَ ما أَمَرَه به، وانتهى عمَّا نَهاه عنه، ﴿وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾: أي ولا يَظلِمُ ربك أحدًا شيئًا، ولو كان مقدار الخيط الذي يكون في شق نَواة التمرة.

الآية ٧٨، والآية ٧٩: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُمُ الْمَوْتُ﴾ عند حلول آجالكم ﴿وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ﴾: أي ولو كنتم في حصون مَنيعة، بعيدة عن ساحة المعارك والقتال، ﴿وَإِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ﴾: يعني وإن يَحصل لهم ما يَسرُّهم من متاع هذه الحياة: يَنسبوا حُصوله إلى الله تعالى، فـ ﴿يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾، ﴿وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ﴾: يعني وإن وقع لهم ما يكرهونه: ينسبوه إلى الرسول محمد صلى الله عليه وسلم جهلاً وتشاؤمًا، فـ ﴿يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ﴾ ﴿قُلْ كُلٌّ﴾ مُقدَّرٌ ﴿مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ وحده (بخيره وشَرِّهِ وحُلوِهِ ومُرِّه)، فأقدارُهُ تعالى تدورُ بين الفضل والعدل، ﴿فَمَالِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾؟ ﴿مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾: أي ما أصابك أيها الإنسان مِن خيرٍ ونعمةٍ: فهو من الله تعالى وحده (فضلا وإحسانًا)، ﴿وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ﴾ يعني: وما أصابك من شدةٍ وبلاء: فبسبب عملك السيئ، وما ارتكبته من الخطايا (عدلاً وحِكمة).

♦ فالحسنة مِن الله تعالى، إذ هو الآمِرُ بها، المُوجِدُ لأسبابها، المُوَفِّقُ للحصول عليها، أما السيئة فمن النفس، إذ هي التي تأمر بها وتدعو إليها، فلذلك لا يَصِحّ نسبتها إلى الله تعالى.

﴿وَأَرْسَلْنَاكَ﴾ يا محمد ﴿لِلنَّاسِ﴾: أي لجميع الناس ﴿رَسُولًا﴾ تُبَلِّغُهم رسالة ربك، ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ على صِدق رسالتك.

♦ واعلم أنَّ قوله تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾: فيه تصبيرٌ من الله تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم عمَّا يُلاقيه من أذى الناس وسُوء أخلاقهم؛ كالذين يَنسبون إليه السيئة تشاؤمًا به، فيُخبره سبحانه بأنَّ مهمته أداء الرسالة، وقد أدَّاها صلى الله عليه وسلم (والله شاهدٌ على ذلك)، وسيَجزيه عليه بما هو أهله، وسيُجازي مَن رَدَّ رسالته وخرج عن طاعته.

الآية ٨٠: ﴿مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ﴾ ويَتَّبع سُنَّتَه ﴿فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾، ﴿وَمَنْ تَوَلَّى﴾ أي: ومَن أعرض عن طاعة الله ورسوله: ﴿فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾: أي فما بعثناك – أيها الرسول – رقيبًا على هؤلاء المعترضين لتحفظ أعمالهم وتحاسبهم عليها، وإنما إلينا مَرجعهم، ثم علينا حسابهم.

الآية ٨١: ﴿وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ﴾: أي ويُظْهر هؤلاء المُعرضون طاعتهم للرسول صلى الله عليه وسلم، وهم في مَجلسه، ﴿فَإِذَا بَرَزُوا﴾: أي فإذا خرجوا ﴿مِنْ عِنْدِكَ﴾ أيها الرسول: ﴿بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ﴾: أي بَدَّلَ جماعةٌ منهم ليلاً غيرَ ما أعلنتْه من الطاعة، (والتبييت: هو تدبير الأمر بالليل، حيثُ اتِّساع الوقت، والفراغ من العمل، وقلة العيون)، ﴿وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ﴾: أي واللهُ يَكتب ما يُبَيتونه من الشر والباطل (بواسطة ملائكته الكِرام الكاتبين)، وسيُجازيهم عليه، ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾، ولا تهتم بهم، فإنهم لن يَضروك، ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ وحده، ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾: أي وكفى به وليّاً يتولى أحوال عباده ويَلطف بهم، وَكَفَى بِهِ نَصِيرًا يَنصرهم على أعدائهم ويُبين لهم ما يَحذرونه منهم، ويَكفيهم ما يُدبرونه لهم من الشر، (فولايته تعالى فيها حصول الخير، ونُصرته فيها زوال الشر).

الآية ٨٢: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ﴾: يعني أفلا يَنظر هؤلاء المشركون إلى ما في القرآن – نظرة تأمُّل وتدبُّر – حيثُ جاء على نَسَقٍ مُحكَم يَدُلّ – يَقِيناً – على أنه مِن عند اللهِ تعالى؟ ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾.

♦ ومِن لطيف ما يُذكَر أنّ هذه الآية كانت سبباً في إسلام أحد علماء الغرب، وذلك عندما كان يريد أن يَبحث في القرآن الكريم عن أيّ خطأ، فأخذ يَقرؤه بتمعُّن لعله يَجد مَأخذاً عليه، ولكنه صُعِقَ عندما قرأ هذه الآية الكريمة، فقال – ما مُختصَرُه –: (مِن المبادئ العِلمية المعروفة في الوقت الحاضر: هو مبدأ (البحث عن الأخطاء في النظريات إلى أنْ تَثبُتَ صِحَّتها)، والعجيب أنّ القرآن يَدعو المسلمين وغير المسلمين إلى إيجاد الأخطاء فيه، بل ويتحداهم أنْ يجدوا أيّ خطأ، وإنه لا يوجد مُؤلف في العالم يُؤلف كتاباً ثم يَمتلك الجُرأة ليقول: (هذا الكتاب خالي من الأخطاء)، ولكنَّ القرآن على العكس تماماً، إنه يقول لك: (لا يوجد خطأ واحد)، بل ويَعرض عليك أن تتمَعَّن في القراءة حتى تجد فيه أخطاءً، ويقول لك: (لن تجد))، فما هذه القوة التي يتكلم بها قائل هذا الكلام؟!، واللهِ لا يمكن لأيّ بشر أن يتكلم بهذه الثِقة وبهذه الجُرأة.

الآية ٨٣: ﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ﴾: يعني وإذا جاء هؤلاء الذين لم يَستقر الإيمان في قلوبهم ﴿أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ﴾: أي أمْرٌ يَجب كتمانه متعلقًا بالأمن الذي يعود بالخير على الإسلام والمسلمين، أو بالخوف الذي يُلقي في قلوبهم عدم الاطمئنان: ﴿أَذَاعُوا بِهِ﴾: أي أفشَوه وأذاعوه بين الناس دونَ التثبُّت مِن صِحَّته، ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ﴾: أي ولو ردَّ هؤلاء ذلك الخبر – الذي جاءهم – إلى الرسول صلى الله عليه وسلم وإلى أهل العِلم والفقْه والخِبرة: ﴿لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾: أي لَعَلِمَ

حقيقة معناه أهل الاستنباط منهم (وهم الذين يَستخرجون معناه الصحيح) ويَعرفون ما يَترتب عليه، فإن كان نافعاً أذاعوه، وإن كان ضارّاً كتموه، ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ﴾: أي ولولا أنْ تَفضَّلَ الله عليكم ورَحِمكم ﴿لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ﴾ ووساوسه في قبول تلك الشائعات الضارة ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ منكم من أصحاب الآراء الصائبة والعقول السليمة، إذ مِثلُهُم لا تُثيرهم تلك الشائعات، كَكِبار الصحابة من المهاجرين والأنصار رضي الله عنهم أجمعين، (وفي الآية دليل على حُرمة الشائعات، ونَشْرها بين الناس قبلَ التثبُّت من صحتها والرجوع إلى أهل العلم والخبرة).

الآية ٨٤: ﴿فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾: أي فجاهِد – أيها النبي – في سبيل الله تعالى لإعلاء كلمته، ﴿لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ﴾: أي لن تؤاخَذ بفِعل غيرك (مِمَّن تركوا الجهاد)، ﴿وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: ولكن حُثَّ المؤمنين أيضاً على الجهاد ورَغِّبهم فيه، ﴿عَسَى اللَّهُ أَنْ يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: لعل الله أن يَمنع – بك وبالمؤمنين – قوة الكافرين وشِدَّتهم ﴿وَاللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنْكِيلًا﴾ أي: والله تعالى أشَدّ قوةً من هؤلاء الكافرين وأعظمُ عقوبةً لهم، حتى يكونوا عِبرةً لغيرهم، (واعلم أنّ كلمة: عَسَى، وكلمة: لَعَلَّ، إذا جاءت من الله تعالى، فإنها تفيد التأكيد ووجوب الوقوع).

الآية ٨٥: ﴿مَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِنْهَا﴾: أي من يَسْعَ – شافعاً – لإيصال الخير إلى غيره: يكن له بشفاعته نصيبٌ من الثواب، ﴿وَمَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِنْهَا﴾: أي ومن يَسْعَ لإيصال الشر إلى غيره: يكن له نصيب من الإثم، ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقِيتًا﴾ أي شاهدًا وحفيظًا.

الآية ٨٦: ﴿وَإِذَا حُيِّيتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا﴾ أي فرُدُّوا على قائلها بأفضل مما سَلَّمَ لفظاً وبَشاشةً، ﴿أَوْ رُدُّوهَا﴾: يعني أو رُدُّوا عليه بمثل ما سَلَّم، ولكلٍ ثوابه وجزاؤه ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا﴾: أي يَحسب أعمال عباده ويُجازيهم عليها، ولو كانَ مثقال ذرةٍ، فاحرص على فِعل الخير دائماً فأنت لا تدري أيَّ عملٍ سيكونُ سبب دخولك الجنة.

الآية ٨٧: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي الذي لا مَعبودَ بحقٍّ إلا هو، ﴿لَيَجْمَعَنَّكُمْ﴾ سبحانه – مِن قبوركم – جميعاً ﴿إِلَى﴾ أرض المَحشَر في ﴿يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ الذي ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ أي الذي لا شَكَّ فيه – للحساب والجزاء – ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا﴾؟! والاستفهام للنفي والإنكار، أي: لا أحد أصْدَق مِن الله تعالى حديثًا فيما أخبر به (لقدرته التامة – سبحانه – على تحقيق ما يريد).

♦ واعلم أنّ الله تعالى قد قال: ﴿لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ بعد أن أعلنَ تَفرُّدَه باستحقاق العبودية – وذلك في قوله –: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾، لأنّ المعبودَ بحق لا يَترك خلقه بلا حساب ولا جزاء، وذلك بعد أن أمَرَهم ونَهاهم.

****

٧. تفسير الربع السابع من سورة النساء

الآية ٨٨: ﴿فَمَا لَكُمْ﴾ أيها المؤمنون قد اختلفتم ﴿فِي﴾ شأن ﴿الْمُنَافِقِينَ﴾، فأصبحتم ﴿فِئَتَيْنِ﴾، فئةٌ منكم تقولُ بقتالهم وأخرى لا تقول بذلك؟ ﴿وَاللَّهُ أَرْكَسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا﴾: أي واللهُ قد أوقعهم في الكفر والضلال بسبب سوء أعمالهم، كما قال تعالى: ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا﴾، فلا يَنبغي لكم أن تشكُّوا في أمْرهم، بل أمْرهم واضح لا إشكال فيه، إنهم منافقون قد تكرر كُفرهم، واتخَذوا الكفار أولياء، ﴿أَتُرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ﴾: يعني أتُريدُونَ هداية مَن صَرف اللهُ قلبه عن دينه (بسبب عِناده وإصراره مِن بعد ما تَبيَّن له الحق)؟ ﴿وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا﴾: أي ومَن خَذله الله عن دينه، فلا طريق له إلى الهدى.

الآية ٨٩: ﴿وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ﴾ أي: تمنَّى المنافقون لكم أيها المؤمنون لَوْ تَكْفُرُونَ ﴿كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً﴾ في الكفر والجحود، ﴿فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ﴾ بالنُصرة والمحبة والمَعونة ﴿حَتَّى يُهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ بُرهانًا منهم على صِدق إيمانهم، لأنّ الهجرة إلى المدينة تقطع صِلَتُهُم بدار الكفر، فيَضعف عزْمهم عن النفاق، ويُراجعوا الصِدق في إيمانهم فيؤمنوا، ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ أي أعرضوا عما دُعُوا إليه ولم يهاجروا: ﴿فَخُذُوهُمْ﴾ أينما كانوا، ﴿وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾ ﴿وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾.

الآية ٩٠: ﴿إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ﴾: يعني إلا المنافقين الذين يلجأون وينضمون إلى قوم بينكم وبينهم عهدٌ وميثاق (على عدم القتال) فلا تقاتلوهم، لأنه باستجارتهم بهم (طالبين الأمان منهم) سيكون لهم نفس حُكمهم في حقن الدم والمال، وذلك حتى لا تنقضوا عهدكم معهم، ﴿أَوْ جَاءُوكُمْ﴾: أي وكذلك المنافقون الذين جاءوا إليكم وقد ﴿حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَنْ يُقَاتِلُوكُمْ﴾: أي ضاقت صدورهم وكرهوا أن يقاتلوكم ﴿أَوْ يُقَاتِلُوا قَوْمَهُمْ﴾: أي كما كرهوا أن يقاتلوا قومهم، فلم يكونوا معكم ولا مع قومهم، فلا تقاتلوهم، ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ﴾ أي لَسلَّطَ هؤلاء المنافقين ﴿عَلَيْكُمْ فَلَقَاتَلُوكُمْ﴾ مع أعدائكم المشركين، ولكنَّ الله تعالى صرفهم عنكم بفضله وقدرته، ﴿فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ﴾: أي فإن تركوكم ﴿فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ﴾ ﴿وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ﴾: أي وقدموا إليكم المُسالَمة: ﴿فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا﴾: أي فليس لكم عليهم مِن طريقٍ لِقتالِهم، وهذا دليل على أن الاعتداء لا يكونُ إلا على المعتدين، كما قال تعالى: ﴿فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ﴾ وهذا هو الكافر المحارِب للمسلمين، أما الكافر المُسالِم فلا يُقتَل، وكذلك المُعاهد والمُستأمَن في أوطاننا، كما قال صلى الله عليه وسلم: (مَن قتلَ

مُعاهداً لم يرحْ رائحة الجنة، وإنَّ ريحها لَيوجَد مِن مَسيرة أربعين عاماً) (والحديث في صحيح الجامع برقم: ٦٤٥٧).

الآية ٩١: ﴿سَتَجِدُونَ﴾ قومًا ﴿آخَرِينَ﴾ من المنافقين ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ﴾: أي يُرِيدُونَ الاطمئنان على أنفسهم مِن جانبكم (فيُظهِروا لكم الإيمان)، كما يُرِيدُونَ الاطمئنان على أنفسهم من جانب قومهم الكافرين (فيُظهِروا لهم الكفر)، وهُم ﴿كُلَّ مَا رُدُّوا إِلَى الْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا فِيهَا﴾: أي كلما أُعِيدوا إلى مَوطن الكفر والكافرين: وقعوا في أسوأ حال، وكلما ظهرتْ لهم فتنة من الفتن: ازداد كُفرهم ونفاقهم، ﴿فَإِنْ لَمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ﴾: أي فهؤلاء إن لم يُفارقوكم، ويُقدموا إليكم المُسالَمة، ﴿وَيَكُفُّوا أَيْدِيَهُمْ﴾ عن قتالكم: ﴿فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ﴾ أي حيثُ وجدتموهم، ﴿وَأُولَئِكُمْ﴾ قد ﴿جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا مُبِينًا﴾: أي جعلنا لكم الحُجَّة البيِّنة على قتْلِهم وأسْرِهم (لِكَونِهم معتدين، ظالمينَ لكم، تاركينَ للمُسالَمة، فلا يَلوموا إلا أنفسهم).

الآية ٩٢: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَأً﴾ يعني إلا أن يَقع منه ذلك على وجه الخطأ الذي لا عَمْدَ فيه، ﴿وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ﴾ أي فعليه تحرير مؤمن أو مؤمنة من الأسر ﴿وَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ﴾: أي وتسليم الدِيَة (وهي مائة من الإبل، أو ألف دينار ذهب، أو اثنا عشر ألف درهم فضة) يَدفعها القاتل إلى أهل المقتول ﴿إِلَّا أَنْ يَصَّدَّقُوا﴾: يعني إلا أن يعفوا عنه فلا يأخذوا منه هذه الدِيَة، ولا يُطالبوه بها، ﴿فَإِنْ كَانَ﴾ المقتول ﴿مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ﴾: أي من قوم كفار أعداء للمسلمين، مُحاربين لهم ﴿وَهُوَ﴾ أي المقتول ﴿مُؤْمِنٌ﴾ بالله ورسوله: ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ﴾: أي فعلى قاتله عِتق رقبة مؤمنة فقط، ولا يُعطِي الدِيَة إلى أهله الكفار، إذ لا تُعطَى الدِيَة لعدو يستعين بها على حرب المسلمين، ﴿وَإِنْ كَانَ﴾ هذا المقتول المؤمن ﴿مِنْ قَوْمٍ﴾ كفار، ولكنْ: ﴿بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ﴾: أي بينكم وبينهم عهدٌ على عدم القتال: ﴿فَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ﴾ وذلك احتراماً لأهله بسبب ما لهم من العهد والميثاق، ﴿وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ﴾ ﴿فَمَنْ لَمْ يَجِدْ﴾ رقبةً يَعتقها، أو كانَ لا يَقدر على ثمن عِتقها: ﴿فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ﴾، وقد شُرِعَتْ هذه الكفارة في القتل الخطأ لتكون ﴿تَوْبَةً مِنَ اللَّهِ﴾ تعالى على العبد القاتل خطأً، ورحمةً به، ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا﴾ بحقيقة شأن عباده ﴿حَكِيمًا﴾ فيما شرعه لهم.

الآية ٩٣: ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ هذا إذا جازاهُ اللهُ على ذنبه ولم يَقبل توبته (عِلماً بأنه سبحانه يَتفضل على أهل الإيمان فلا

يُجازيهم بالخلود في جهنم)، ففي الحديث أنّ الله تعالى يقول يوم القيامة: (أخرِجوا من النار مَن قال لا إله إلا الله وكان في قلبه من الخير ما يَزِن ذَرَّة) (انظر صحيح الترمذي ج ٤/ ٧١١).

الآية ٩٤: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي إذا خرجتم تضربون الأرض بأرجلكم (مسافرين) لتجاهدوا في سبيل الله ﴿فَتَبَيَّنُوا﴾: أي فتثبتوا، وكونوا على بَيِّنَة مِمَّن تلقونهم في طريقكم، حتى لا تقتلوا مُسلماً تحسبونه كافراً، لأن التَثَبُّت في هذه الأمور يحصل فيه من الفوائد الكثيرة، والكَفّ عن الشرور العظيمة ما لا يعلمه إلا الله سبحانه وتعالى.

♦ واعلم أن سبب نزول هذه الآية أن بعض أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم خرجوا فلَقوا رجلاً يسوقُ غَنَماً مِن بَني سليم، فلما رآهم سَلَّمَ عليهم قائلاً: السلام عليكم، فقالوا له: ما قلتَها إلا تَقِيَّةً – أي خوفاً مِنّا – لِتَحفظ نفسك ومَالَك، فقتلوه، فلَمَّا عَلِمَ النبي صلى الله عليه وسلم بذلك، حَمَلَ دِيَتَهُ إلى أهله وَرَدَّ غَنَمَه.

﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ﴾: أي وَلَا تَقُولُوا لمن ظهر منه شيءٌ من علامات الإسلام ولم يقاتلكم، كأن يُعلن إسلامه لكم (بقول الشهادة أو بإلقاء السلام)، فلا تقولوا له: ﴿لَسْتَ مُؤْمِنًا﴾ لاحتمال أن يكون مؤمنًا يُخفِي إيمانه، ثم عاتَبَهم سبحانه بقوله: ﴿تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾: أي تطلبون بهذا الفِعل متاع الدنيا الزائل، لتأخذوا غنم الرجل الذي قتلتموه، فإن كان قصْدُكم الغنيمة ﴿فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ﴾: أي فعند الله تعالى من الفضل والعطاء ما يُغنيكم به، وما عنده سبحانه خيرٌ وأبقَى من عَرَض الدنيا القليل الفاني، فأطيعوه وأخلِصوا له النيَّة والعمل.

﴿كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ﴾: أي كذلك كنتم في بدء الإسلام – مثل هذا الرجل الذي قتلتموه – تُخفون إيمانكم عن قومكم المشركين، ﴿فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ بأنْ أظهَرَ دينه، ونَصَرَكم، وأعَزَّكم بالإيمان والقوة والهداية.

♦ فنظرُ العبد لحالته الأولى، يَجعله يُعامل الناس بمثل ما كانَ عليه قبلَ هُداه، ولهذا أعاد اللهُ الأمرَ بالتبيُّن فقال: ﴿فَتَبَيَّنُوا﴾: أي فتبيَّنوا مستقبَلاً، ولا تقتلوا أحداً حتى تتأكدوا مِن كُفره، لأنّ قتْل النفس عظيم، ولذلك لَمَّا أُخبِرَ النبي صلى الله عليه وسلم بأنّ أسامة بن زيد قتل رجلاً قال (لا إله إلا الله) – ظناً منه أنه قالها خوفاً من سيفه – فقال صلى الله عليه وسلم لأسامة: "هَلاَّ شَقَقْتَ عن قلبه"، ومِن هنا خرجتْ

القاعدة الفقهية التي تقول: (نحن لنا الظاهر، والله يتولى السرائر)، ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ وسيجازيكم على أعمالكم.

♦ وفي هذا إشارة إلى أنه ينبغي للعبد إذا رأى نفسه تميلُ إلى شيءٍ – يُغضِبُ الله – أن يُذَكِّرها بما أعَدَّهُ الله لمن نَهى نفسه عن هواها، وقدَّم رضا ربه على رضا نفسه، فإنَّ في ذلك ترغيبًا للنفس في امتثال أمر الله (وإنْ شَقَّ عليها ذلك)، قال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى * فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى﴾.

♦ واعلم أنَّ في قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ﴾ إرشادٌ إلى المؤمن في أن يَرفق بالعُصاة، وأن يرحمهم لِضَعفهم واستحواذ الشيطان عليهم، وأن يَعذرهم بجهلهم، لأنه كان جاهلاً مثلهم بحُرمة ما يفعل، حتى سَخَّرَ الله له مَن عَلَّمَه وصَبَرَ عليه ورَفَقَ به، فإذا رأى عاصياً فعليه أن يقول: (الحمد لله الذي عافاني مما ابتلاك به)، وأن يسأل الله الثبات، فقد يتوبُ الله على هذا العاصي الذي يحتقره، وقد يَخذل الآخر لحظة الاحتضار – بسبب تَكَبُّره – فلا يَنطق الشهادتين، فحينئذٍ يَتَّسع صدره للخلق، ويكون لَيِّناً ورفيقاً في النصيحة كما عَلَّمَه الله (بالحكمة والموعظة الحسنة) – وذلك بعد أن يُنكِرَ المعصية بقلبه.

♦ وعليه أن يبدأ معه بالثناء عليه وأن يُظهِرَ له أنه يخاف عليه مِن عذاب الله، كما قال شعيب عليه السلام لقومه: ﴿إِنِّي أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ﴾، وليَحذر من أن يُنَفِّرَه من الالتزام والهدى بسبب نصيحةٍ بسُوء خُلُق (بغضب) أو أن ينصحه أمام الخَلق، فيَصُدّهُ بذلك عن سبيل الله، فيجده في ميزان سيئاته يوم القيامة، كما قال تعالى: ﴿وَتَذُوقُوا السُّوءَ بِمَا صَدَدْتُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾، فارحم – أخي الحبيب – حتى تُرحَم، واعلم أنه إذا كان نَهْيُك عن المنكر سوف يَتسبب في منكر أكبر منه فتوقف، فإنه سَعْيٌ في معصية الله.

الآية ٩٥، والآية ٩٦: ﴿لَا يَسْتَوِي﴾: أي لا يتساوى ﴿الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾: أي المتخلفون عن الجهاد في سبيل الله ﴿غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ﴾: أي باستثناء أصحاب الأعذار منهم فإنهم معذورون بتخلفهم عن الجهاد – أما المتخلف عن الجهاد بغير عُذر فلا يتساوى هو ﴿وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ﴾ فقد ﴿فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ﴾، ورفع مرتلتهم ﴿دَرَجَةً﴾ عالية في الجنة، ﴿وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى﴾ أي: وكُلاً من المجاهدين والقاعدين (من أهل الأعذار) قد وعدهم الله بالجنة، وذلك لِما بذلوا وضحَّوا في سبيل الحق، وبصِدق نية أصحاب الأعذار في الخروج إذا

زال عنهم العذر، ﴿وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ فقد مَنحهم سبحانه ﴿دَرَجَاتٍ مِنْهُ﴾ عالية في الجنات ﴿وَمَغْفِرَةً﴾ لذنوبهم ﴿وَرَحْمَةً﴾ واسعة، ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا﴾ لمن تاب إليه وأناب ﴿رَحِيمًا﴾ بأهل طاعته، المجاهدين في سبيله.

الآية ٩٧، والآية ٩٨، والآية ٩٩: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ﴾ يعني: إِنَّ الَّذِينَ تتوفاهم الملائكة لحظة الاحتضار، وكانوا ﴿ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ﴾ بقعودهم في دار الكفر وترْك الهجرة، ﴿قَالُوا﴾: أي تقول لهم الملائكة توبيخًا لهم: ﴿فِيمَ كُنْتُمْ﴾: أي في أيّ شيءٍ كنتم مِن أمْر دينكم؟ ﴿قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ﴾: أي كنا ضعفاء في أرضنا، عاجزين عن دفْع الظلم والقهر عن أنفسنا، ﴿قَالُوا﴾: أي فتقول لهم الملائكة توبيخًا: ﴿أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا﴾: أي فتخرجوا من أرضكم إلى أرضٍ أخرى حتى تأمَنوا على دينكم؟ ﴿فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ ﴿إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ﴾: أي ويُستثنَى – من ذلك المصير – هؤلاء الضعفاء الذين ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً﴾: أي لا يقدرون على دفع القهر والظلم عن أنفسهم، ﴿وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا﴾: أي ولا يعرفون طريقًا يُخَلِّصُهُم مما هم فيه من المُعاناة ﴿فَأُولَئِكَ﴾ الضعفاء ﴿عَسَى اللَّهُ﴾: أي يُرجَى لهم من الله تعالى ﴿أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ﴾ لِعلمه تعالى بحقيقة أمْرهم ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا﴾.

****

٨. تفسير الربع الثامن من سورة النساء

الآية ١٠٠: ﴿وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي: ومَن يخرج من أرض الشرك إلى أرض الإسلام فِرارًا بدينه، راجيًا فضل ربه: ﴿يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا﴾ أي مكانًا يَنعَمُ فيه بما يكونُ سببًا في قُوَّته وذِلَّة أعدائه، ﴿وَسَعَةً﴾: أي ويجد أيضاً سَعَةً في رزقه وعَيْشه، ﴿وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ أي قاصدًا نُصرة دين الله ورسوله صلى الله عليه وسلم، وإعلاء كلمة الله تعالى وعبادته، ﴿ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ﴾ وهو في طريق هجرته قبل أن يَبلُغَ مَقصِده: ﴿فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾: أي فقد ثَبتَ له جزاء عمله، ووجب أجْرُهُ على الله تعالى كاملاً غير منقوص (فضلاً منه وإحسانًا)، وسيَغفِرُ له ذنوبه، ويَرحمه فيُدخِله جنته ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾.

الآية ١٠١: ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ﴾: يعني وإذا سافرتم في أرض الله ﴿فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يعني إن خفتم من عُدوان الكفار عليكم في حال صلاتكم، ﴿إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُبِينًا﴾ أي يُظهِرون لكم عداوتهم فاحذروهم.

♦ واعلم أنّ هذه الآية قد ذكرتْ أنّ القصر في السفر رخصة في حال الخوف من الكفار (لأنَّ غالب أسفار المسلمين – في بدء الإسلام – كانت على خوفٍ من الكفار)، ولكنْ ثبت في السُنَّة أن القصرَ يكونُ رخصةً في السفر عموماً (سواء في حال الأمن أو في حال الخوف).

الآية ١٠٢: ﴿وَإِذَا كُنْتَ﴾ أيها النبي ﴿فِيهِمْ﴾ أي في ساحة القتال ﴿فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ﴾: أي فأردتَ أن تصلي بهم: ﴿فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ﴾: أي فلْتَقُمْ جماعةٌ منهم لِيُصَلّوا معك، ﴿وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ﴾ معهم لِيحملوها وهم يُصَلّون، ﴿فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِنْ وَرَائِكُمْ﴾: أي فإذا سجدتْ هذه الجماعة الأولى: فلتكن الجماعة الأخرى مِن خلفكم في مواجَهة عدوكم، ثم عندما تقومون إلى الركعة الثانية: تُتِمّ الجماعة الأولى ركعتهم الثانية بأنفسهم، ثم يُسَلِّمون وَحدَهم (هذا كله وأنت واقف قبل ركوعك)، ﴿وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ﴾ أي: ثم تأتي الجماعة الأخرى (التي لم تبدأ الصلاة) فليأتَمُّوا بك في ركعتك الثانية (وهي الركعة الأولى لهم)، ثم بعد أن تُسَلِّم أنت، يقوموا لِيُكملوا ركعتهم الثانية بأنفسهم (وبهذا تكون كل جماعة منهم قد صَلَّتْ ركعة معك وركعة بأنفسهم) ﴿وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ﴾: أي وليَحذروا مِن عَدُوِّهم وليأخذوا أسلحتهم لِيُصَلُّوا بها، ﴿وَدَّ﴾ أي تَمَنَّى ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ﴾ ﴿فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً وَاحِدَةً﴾ أي ليهجموا عليكم هجمة واحدة ليقضوا عليكم،

﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كَانَ بِكُمْ أَذًى مِنْ مَطَرٍ أَوْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَنْ تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ﴾ على الأرض أثناء الصلاة، ولكنْ: ﴿وَخُذُوا حِذْرَكُمْ﴾ لأنكم حينئذٍ ستُصَلُّون بغير سلاح، ﴿إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا﴾.

♦ واعلم أن هذه الطريقة السابقة هي إحدى طرق صلاة الخوف، وقد ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه صَلاها بأكثر من طريقة.

الآية ١٠٣: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَاةَ﴾: أي فإذا أدَّيتم الصلاة بهذه الطريقة السابقة ﴿فَاذْكُرُوا اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِكُمْ﴾: أي فداوِموا على ذِكر الله في جميع أحوالكم، ﴿فَإِذَا اطْمَأْنَنْتُمْ﴾: أي فإذا زالَ الخوف عنكم ﴿فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ كاملةً، وفي أوقاتها، فـ ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا﴾ يعني إنها واجبة في أوقاتٍ معلومةٍ في الشرع.

الآية ١٠٤: ﴿وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ﴾: أي ولا تَضْعُفوا في طلب عدوكم وقتاله، ﴿إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ﴾: أي تتألمون من القتال وآثاره: ﴿فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ﴾، ومع ذلك لا يَكُفُّون عن قتالكم، فأنتم أوْلَى بذلك منهم لأنكم: ﴿وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ﴾ من الثواب والنصر والتأييد ﴿مَا لَا يَرْجُونَ﴾ هُم، ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾.

الآية ١٠٥: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ﴾ – أيها الرسول – ﴿الْكِتَابَ﴾ أي القرآن ﴿بِالْحَقِّ﴾ الذي اشتمل عليه ﴿لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ﴾ أي بما أَوْحَى اللهُ إليك – وعَلّمَك إياه – مِن القرآن والسُنَّة، ﴿وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيمًا﴾ أي: ولا تكن مُدافِعًا عن الذين يَخونون أنفسهم بكِتمان الحق وإظهار القول المُخالِف للحقيقة، بل تَثَبَّت مِن صِحَّة قولهم قبل أن تُدافِع عنهم.

♦ ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم – كما في الصحيحين –: "إنما أنا بَشَر، وإنكم تختصمون إليّ – أي تجعلونني حَكَماً بينكم – ولعل بعضكم أن يكون ألْحَنَ بحُجَّته مِن بعض – أي أكثر قدرة على (الإقناع) – فأقضي له على نَحْو ما أسمع، فمَن قضَيْتُ له بحق أخيه: فلا يأخذه، فإنما أقتطع له قطعة مِن نار".

الآية ١٠٦: ﴿وَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ﴾ أي اطلب منه تعالى المغفرة في جميع أحوالك، ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا﴾ لمن يَرجو فضله ومغفرته، ﴿رَحِيمًا﴾ به.

الآية ١٠٧، والآية ١٠٨: ﴿وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ﴾: أي ولا تدافع - أيها الرسول - عن الذين يخونون أنفسهم بمعصية الله تعالى، وَلَا تَكُنْ لهم خَصِيمًا (أي مُدافعًا عنهم)، فـ ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا﴾: يعني إنّ الله لا يحب مَن عَظُمَتْ خيانته، وكَثُرَ ذنبه، فهؤلاء ﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ﴾: أي يَستترون من الناس خوفًا من اطِّلاعهم على أعمالهم السيئة، ﴿وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ﴾ تعالى ولا يستحيون منه، ﴿وَهُوَ﴾ سبحانه ﴿مَعَهُمْ﴾ بعلمه، مُطَّلِعٌ عليهم ﴿إِذْ يُبَيِّتُونَ﴾: أي حين يُدبِّرون ليلاً ﴿مَا لَا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ﴾ ﴿وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا﴾.

الآية ١٠٩: ﴿هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ﴾ - أي يا هؤلاء - قد ﴿جَادَلْتُمْ عَنْهُمْ﴾ أي دافعتم عن هؤلاء الخائنين لأنفسهم ﴿فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ (ودَفَعتم عنهم العار والفضيحة - عند الخَلْق - بهذا الجِدال)، ﴿فَمَنْ يُجَادِلُ اللَّهَ عَنْهُمْ﴾: أي فمَن الذي يَجرؤ أن يُدافع عنهم أمام الله تعالى ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾؟! ﴿أَمْ مَنْ يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا﴾ يعني: ومَن الذي يَقدر أن يتولى أمورهم في ذلك اليوم، فيَحفظهم مِن عذاب الله تعالى حين تَشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم؟! (وهذا الاستفهام للإنكار والتوبيخ).

الآية ١١٠: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا﴾ أي: ومَن يُقْدِمْ على عملٍ سيِّئ قبيح، ﴿أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ﴾ بارتكاب ما يخالف حُكمَ الله وشرعِه، ﴿ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ﴾ نادمًا على ما عمل، راجيًا مغفرته: ﴿يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا﴾ له ﴿رَحِيمًا﴾ به، فقد قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾، ولذلك ينبغي للعبد - وهو يستغفر الله - أنْ يَستشعرَ في قلبه الندم أنه خالفَ أمْرَ الملك العظيم جَلَّ جلاله، وأنه عَصاهُ بِنِعْمَتِهِ التي أعطاها له وحَرَمَ غيره منها، وأنه كان يعلم أنَّ الله يراه وهو يَعصي ولم يَهتم بذلك، ولكنْ رغمَ هذا كله فإنه يعلمُ أنه سبحانه غفورٌ رحيم، فحينئذٍ ينكسر قلبه لله تعالى وهو يستغفره (على كل ما ضاع مِن عُمره في المعصية، وعلى كل ما فاته من الطاعة).

الآية ١١١: ﴿وَمَنْ يَكْسِبْ إِثْمًا﴾ متعمداً ﴿فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَى نَفْسِهِ﴾: يعني فإنما يَضر بذلك نفسه وحدها، ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا﴾ بحقيقة أمر عباده ﴿حَكِيمًا﴾ فيما يَقضي به بين خلقه.

الآية ١١٢: ﴿وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً﴾ بغير عمد ﴿أَوْ إِثْمًا﴾ متعمدًا، ﴿ثُمَّ يَرْمِ بِهِ﴾: أي ثم يَتهم بهذا الإثم شخصاً (بَرِيئًا) لم يفعل شيئاً ﴿فَقَدِ احْتَمَلَ﴾: أي فقد تحمَّل ﴿بُهْتَانًا﴾: أي كَذِبًا ﴿وَإِثْمًا مُبِينًا﴾ واضحاً.

الآية ١١٣: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ﴾ أيها الرسول ﴿وَرَحْمَتُهُ﴾ بك - حيثُ أخبرك بحقيقة هؤلاء الخائنين، وحَذَّرك من الدفاع عنهم -: ﴿لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ﴾: أي لَعَزَمتْ جماعةٌ منهم ﴿أَنْ يُضِلُّوكَ﴾ عن

الصواب – حتى تَحكم بغير العدل – ولكنّ اللهَ عَصمك من الخطأ والضلال، ﴿وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ﴾: يعني إنهم لو هَمُّوا بذلك لَحَقَّ عليهم الضلال، ﴿وَمَا يَضُرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ﴾ أي: وما يَقدرون على إيذائك لأنّ اللهَ تعالى قد حفظك، ﴿وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ أي القرآن والسُّنَّة ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ﴾ ﴿وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾.

****

٩. تفسير الربع التاسع من سورة النساء

الآية ١١٤: ﴿لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ﴾: أي لا نفعَ في كثيرٍ من كلام الناس سِرّاً فيما بينهم ﴿إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ﴾: يعني إلا إذا كان حديثاً داعيًا إلى بذل المعروف من الصدقة، أو الكلمة الطيبة، أو الإصلاح بين المتخاصمين، ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ﴾: يعني ومن يفعل تلك الأمور ﴿ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ﴾: أي طلبًا لرضا الله تعالى ورجاءً في ثوابه ﴿فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾.

الآية ١١٥: ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ﴾ أي: ومَن يُخالف ﴿الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى﴾: أي مِن بعد ما ظهر له الحق ﴿وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ﴾: أي ويَسلك طريقًا غير طريق المؤمنين وما هم عليه من الحق، (وأوَّلهم صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وتابعيهم بإحسان)، فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم – كما في الصَحِيحَيْن – : (خيرُ الناس قَرْني، ثم الذين يَلونهم، ثم الذين يلونهم)، فمن اتَّبَع طريقاً غير طريقهم: ﴿نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى﴾: أي نَتركه وما توجَّه إليه، فلا نوفقه للخير ﴿وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ﴾: أي ونُدخِله نار جهنم يُقاسي حرَّها ﴿وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾.

♦ واعلم أنّ في قوله تعالى: ﴿وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ دليل على أن (إجماع المسلمين) هو مصدر من مصادر التشريع (بعد القرآن والسُنَّة)، بمعنى أنه إذا أجمعتْ أمَّة محمد صلى الله عليه وسلم على شيء، فإنه يجب الأخْذ به وعدم مخالفته، فمَا شَهدَتْ له هذه الأمّة بالقبول، فهو مقبول، وما شَهدَت له بالرَدّ، فهو مَردود، وذلك في جميع علوم الدين (كإجماع أهل التفسير، وإجماع أهل الحديث وغيرهم).

♦ ونحن نقول لمن يخالفون الإجماع ولا يأخذون به: (عندما مات موسى عليه السلام: حَرَّفَ اليهود التوراة، فأرسل الله لهم عيسى عليه السلام ليوضح لهم ما حَرَّفوه، ثم لَّما رُفِعَ عيسى عليه السلام: حَرَّفَ النصارى الإنجيل، فأرسل الله محمداً صلى الله عليه وسلم لِيُبَيِّن لهم ما حَرَّفوه، وعندما مات محمد صلى الله عليه وسلم: تطاوَلَ بعض الخلق على القرآن، وحاولوا أن يُحَرِّفوه (فأفشلهم الله تعالى، وأبطل مَكْرهم، وفضَحَ أمْرهم)، هنا نسأل: (هل كان الله سَيُرسِل نبياً بعد محمد صلى الله عليه وسلم لِيَرُدّ على هؤلاء المفترين؟) بالطبع لا، لأن الله قد أخبر أن محمداً صلى الله عليه وسلم هو خاتَم النبيين، إذن مَن سَيَرُدّ عليهم؟! لا يوجد غير إجماع المسلمين بأن هذا القرآن قد نُقِلَ إلينا مُتَواتِراً (أي من جماعات كثيرة تنقل بعضها عن بعض)، وذلك بِحِفظ الله تعالى له، لأنه سبحانه قد تعَهَّدَ بِحِفظه وجَمْعِه، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾، وقال تعالى: ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ

حَمِيدٍ﴾، وقال تعالى: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ﴾، وذلك لأنه هو الدين الخاتَم، الذي ارتضاه الله لجميع الخلق إلى قيام الساعة، قال تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾، وقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾، وقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾.

الآية ١١٦: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ﴾ أي لا يَتجاوز عَمَّن أشرك به في عبادته (إلا إذا تاب مِن الشرك قبلَ موته)، ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ﴾ – وهي الذنوب التي أقل مِن الشرك – فيَغفرها سبحانه ﴿لِمَنْ يَشَاءُ﴾ مِن عباده، ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ عن طريق الحق والصواب.

الآية ١١٧، والآية ١١٨، والآية ١١٩: ﴿إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنَاثًا﴾: أي ما يَعبد المشركون من دون الله تعالى إلا أوثانًا لا تنفع ولا تضر (وهم يُسَمُّونهم بأسماء الإناث، كاللات والعُزَّى ومَناة)، ﴿وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَرِيدًا﴾: يعني إنهم في واقع الأمر يَدعون شيطاناً متمردًا على الله، إذ هو الذي دعاهم إلى عبادة الأصنام فعبدوها، فهم إذاً عابدون للشيطان في باطن الأمر لا الأوثان، وهذا الشيطان قد ﴿لَعَنَهُ اللَّهُ﴾ ﴿وَقَالَ﴾ الشيطان لله تعالى: ﴿لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا﴾: أي لأتخِذنَّ مِن عبادك عدداً كبيراً يعبدونني ولا يعبدونك، وهم معروفون بمعصيتهم لك، وطاعتهم لي، ﴿وَلَأُضِلَّنَّهُمْ﴾: أي ولأصرفَنَّ مَن تبعني منهم عن طريق الحق، ﴿وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ﴾ يعني: سوف أعوقهم عن طاعتك بالأماني الكاذبة بأنهم لن يُعذَّبوا، أو بأنه سيُغفَر لهم (حتى وإن استمروا على المعاصي ولم يتوبوا)، ﴿وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الْأَنْعَامِ﴾ أي: ولأدعُوَنَّهم ليجعلوا لآلهتهم نصيباً من الأنعام، فيَقطعون آذانها لتكون علامة على أنها ستُذبَح للآلهة، ﴿وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ﴾: أي ولأدعُوَنَّهم إلى تغيير ما خلقه الله تعالى في الفِطرة، (بالبِدَع والشرك والمعاصي)، وتغيير هيئة ما عليه الخَلق (كالوَشْم والنَمْص (وهو تخفيف الحاجب للمرأة)، وغير ذلك)، ﴿وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُبِينًا﴾.

الآية ١٢٠: ﴿يَعِدُهُمْ﴾ أي: يَعِدُ الشيطان أتباعه بالوعود الكاذبة ﴿وَيُمَنِّيهِمْ﴾ أي: ويَخدعهم بالأماني الباطلة ﴿وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾ أي خِداعاً لا صِحَّة له، ولا دليلَ عليه.

الآية ١٢١: ﴿أُولَئِكَ﴾ المتبعون للشيطان ﴿مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ﴾ ﴿وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا﴾: أي ولا يجدون مَلجأً يَهربون إليه منها.

الآية ١٢٢: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ – طالبينَ الأجرَ مِن اللهِ تعالى، ومُتَّبعينَ لرسوله صلى الله عليه وسلم في أقواله وأفعاله – أولئك ﴿سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ ﴿وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا﴾ أي: وبهذا وَعَدَهم اللهُ وعداً حقاً، لابد مِن إتمامه، ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا﴾؟! أي: ولا أحد أصْدَقُ مِن اللهِ تعالى في قوله ووعده (لقدرته التامة على تحقيق ما يريد).

الآية ١٢٣، والآية ١٢٤: ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ﴾: أي اعلموا أيها المسلمون أنَّ فضْل الله تعالى وثوابه العظيم لا يُنال بأمنياتكم الخالية من العمل، ﴿وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ من اليهود والنصارى، وإنما يُنالُ بالإيمان الصادق بالله تعالى، وإحسان العمل الذي يُرضيه، فسُنن الله تعالى ثابتة، وهي أنَّ ﴿مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ﴾ - إلا لو تاب العبدُ من ذنبه وقَبِلَ الله توبته - ﴿وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا﴾ يتولى أمْره (إذا لم يتب وأصرّ على عصيانه)، ﴿وَلَا نَصِيرًا﴾ يَنصره، ويَدفع عنه سوء العذاب.

﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ بالله تعالى وبما أنزل من الحق ﴿فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ﴾ دار السعادة والراحة والنعيم، التي فيها ما تشتهيه الأنفس وتَلَذُّ الأعين، التي فيها ما لا عَينٌ رأتْ، ولا أذنٌ سمعتْ، ولا خطر على قلب بشر من أنواع المآكل والمشارب اللذيذة، والمناظر العجيبة، والقصور المُزَخرَفة، والأنهار الجارية، والأشجار المُتَدَلِّية، والفواكه الغريبة، والأصوات العذبة، وأعلى من ذلك كله: تَمَتُّع الأرواح بقُرب ربهم، وتلذذ العيون برؤيته، وتلذذ الأسماع بخطابه الذي يُنسيهم كل نعيم، ولولا الثبات من الله لهم، لطاروا من الفرح والسرور، ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾: أي ولا يُنْقَصون من ثواب أعمالهم شيئًا، ولو كان مقدار النُقرة التي في ظهر النواة.

الآية ١٢٥: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا﴾ أي: لا أحد أحسن ديناً ﴿مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ أي وهو مُتقِن للعبادة ومُؤديها على النحو الذي شرعه اللهُ تعالى في كتابه وعلى لسان نبيه محمد صلى الله عليه وسلم، ﴿وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ ﴿وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾ أي: وقد اختار اللهُ إبراهيم عليه السلام ليكونَ خليله، (واعلم أنّ الخُلّة هي أعلى مقامات المحبة والاصطفاء)، وقد شَرَّفَ اللهُ أيضاً بالخُلَّة محمداً صلى الله عليه وسلم، ففي الصحيحين أنه صلى الله عليه وسلم خطبهم آخر خطبة، فقال: "أمّا بعد أيها الناس: فلو كنتُ متخذاً من أهل الأرض خليلاً، لاتخذتُ أبا بكر ابن أبي قحافة خليلاً، ولكنّ صاحبكم – يعني نفسه صلى الله عليه وسلم – خليل الله".

الآية ١٢٦: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ فالكل خَلقه وعَبيده، تحت قهره وسلطانه، لا يَتحركون إلا بمشيئته وإرادته، فلِذلك لن يكون إلا ما يريدُ سبحانه، ﴿وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطًا﴾ (لا يَخفَى عليه شيءٌ مِن أمور خَلقه).

الآية ١٢٧: ﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ﴾ يعني: وما زالوا يَستفتونك في النساء (أي: في شأن ما لَهُنَّ وما عليهنَّ من حقوق، كالميراث والمهر وغير ذلك)، ﴿قُلِ اللَّهُ﴾ وحده ﴿يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ﴾، وقد أفتاكم سبحانه فيهنَّ وبَيَّنَ لكم حقوقهنَّ وواجباتهنَّ في الآيات الأولى من هذه السورة، حيث قرَّرَتْ الآيات حق المرأة والطفل في الميراث، وحَثَّتْ على المحافظة على مال اليتيم.

♦ وقوله تعالى: ﴿وَمَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتَامَى النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ﴾: أي: وما يُتلَى عليكم في يتامى النساء في أول السورة كافٍ لا تحتاجون معه إلى مَن يُفتيكم، إذ بَيَّنَ لكم سبحانه أنه إذا كانت تحت أيديكم يتيمات وكنتم ترغبون في نكاحهنّ فأعطوهنّ مهورهنَّ كاملة مثل باقي النساء، وإذا كنتم لا ترغبون في نكاحهنّ فأعطوهنّ مالهنّ وزَوِّجوهُنَّ لِغَيركم، ولا يَحِلّ لكم أن تحبسوهنّ في بيوتكم من أجل أموالهنّ.

﴿وَالْمُسْتَضْعَفِينَ﴾ أي: وكذلك قد بَيَّنَ اللهُ لكم أمر الضعفاء ﴿مِنَ الْوِلْدَانِ﴾ الصغار، حيثُ قد أعطاهم حقهم وافياً في آيات المواريث، ﴿وَأَنْ تَقُومُوا لِلْيَتَامَى بِالْقِسْطِ﴾ أي: وكذلك بَيَّنَ لكم وجوب القيام لليتامى بالعدل، وترْك الظلم عليهم في حقوقهم، ﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيمًا﴾، وسيُجازيكم به – مِن فضله وإحسانه – في جنات النعيم.

الآية ١٢٨: ﴿وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا﴾ يعني: وإذا خافت الزوجة مِن استغناء زوجها عنها وعدم رغبته فيها، ﴿أَوْ إِعْرَاضًا﴾ عنها بوجهه، فلا يُكلمها ولا يَأنس بها (وذلك لِسُوء خُلُقِها، أو لِكِبَر سِنِّها وعدم رغبتها في المعاشرة الزوجية، أو غير ذلك)، وأراد أن يُفارقها، فَفَضَّلت هي البقاءَ معه: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا﴾: أي فلا بأس ولا حرج في هذه الحالة ﴿أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا﴾ أي: فلها أن تُجْري مع زوجها صُلحاً (وهو ما يُسَمُّونه: تفاوُضاً) يَحفظ لها بقاءها في بيتها عزيزة محترمة، وذلك بأن تتنازل له عن بعض حقها في الفراش (فتَهَبُ بعضَ أيامها لزوجته الثانية)، أو تتنازل عن بعض ما كان واجباً لها من النفقة أو الكسوة، فإنّ هذا خيرٌ لها من الفراق، ولهذا قال تعالى: ﴿وَالصُّلْحُ خَيْرٌ﴾ أي: والصلح أوْلَى وأفضل من الفِراق، وذلك لضمان النفقة عليها وغير ذلك.

♦ وقوله تعالى: ﴿وَأُحْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ﴾: أي وقد فُطِرَتْ النفوس على البخل، فهو مُلازمٌ للنفس البشرية لا يفارقها (والمرأة كالرجل في هذا)، إلا أن المرأة أبخَل منه في أن تُعطي شيئاً مِن حقها لغيرها، إذاً فليُراعِ الزوج هذا، ولا يَستغل اضطرارها لهذه المصالحة فيُنقِصها كثيراً من حقوقها، ولهذا قال تعالى بعدها: ﴿وَإِنْ تُحْسِنُوا﴾ معاملة زوجاتكم ﴿وَتَتَّقُوا﴾ اللهَ فيهنّ: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ لا يَخفى عليه شيء، وسيَجزيكم بالإحسان إحساناً وبالخيرِ خيراً.

الآية ١٢٩: ﴿وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا﴾ أيها الرجال ﴿أَنْ تَعْدِلُوا﴾ العدل التام ﴿بَيْنَ النِّسَاءِ﴾ في المَحبة وميل القلب، أما في النفقة والكِسوة والعِشرة بالمعروف فهذا مُستطاع.

﴿وَلَوْ حَرَصْتُمْ﴾ على تحقيق العدل في الحب فلن تستطيعوا، ولذلك لا يؤاخِذ اللهُ تعالى به، ولكنْ بشرط: ﴿فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ﴾: أي فلا تُعرِضوا عن المرغوب عنها كُلَّ الإعراض ﴿فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ﴾: أي حتى لا تتركوها كالمرأة المُعلَّقة التي (ليست متزوجة ولا هي مُطلَّقة) فتأثَموا، ﴿وَإِنْ تُصْلِحُوا﴾ أعمالكم فتَعدِلوا في النفقة والعطاء بين زوجاتكم ﴿وَتَتَّقُوا﴾ اللهَ تعالى فيهنّ: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا﴾ يَغفر لكم ما عجزتم عن القيام به لِضَعفكم ﴿رَحِيمًا﴾ يَرحمكم في دُنياكم وأُخراكم بسبب تقواكم له.

الآية ١٣٠: ﴿وَإِنْ يَتَفَرَّقَا﴾ أي: فإذا تعذر الاتفاق بين الرجل وامرأته، فلا بأس بالفراق، فإذا تفرقا: ﴿يُغْنِ اللَّهُ كُلًّا﴾ منهما ﴿مِنْ سَعَتِهِ﴾ وفضله، فيُغني الزوج بزوجةٍ خيرٍ له منها، ويُغني الزوجة بزوجٍ خيرٍ لها منه، وإن انقطعتْ نفقتها من زوجها (بعد الفراق)، فإنَّ رِزقَها على المتكفل بأرزاق جميع الخلق، القائم بمصالحهم، ولذلك قال في الآية التي بعدها: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾، فمَن كان كذلك فهو قادرٌ على إغنائهما، ﴿وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعًا﴾ في فضله وعطائه ﴿حَكِيمًا﴾ فيما يَقضي به بين عباده.

الآية ١٣١: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ خَلقاً ومُلكاً وتصرُّفاً وتدبيراً، ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ من اليهود والنصارى ﴿وَإِيَّاكُمْ﴾ أي وكذلك عَهِدنا إليكم يا أمَّة محمد ﴿أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ﴾ ﴿وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ يعني فإنه سبحانه غنيٌّ عنكم؛ لأنّ له جميع ما في السموات وما في الأرض ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا﴾ عن خَلقه، فلا تنفعه طاعة الطائعين، ولا تضره معصية العاصين وجحود الجاحدين، وكان سبحانه ﴿حَمِيدًا﴾ في صفاته وأفعاله، مُستحقاً للثناء في كل حال.

الآية ١٣٢، والآية ١٣٣: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ (فهُم جميعاً مُنقادون لمشيئتِهِ وتقديرِهِ وحُكمه وتَدبيره)، ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ أي قائمًا بشؤون خلقه (واعلم أنَّ الوكيل هو مَن يُوَكَّل إليه الأمر لِيُدَبِّرَه)، ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ﴾ أي يُهلِككم ﴿أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ﴾ يُوَحِّدونه ولا يُشركونَ به شيئاً ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَى ذَلِكَ قَدِيرًا﴾ (إذ يقول سبحانه للشيئ كُن فيكون).

الآية ١٣٤: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا﴾ أي: مَن كانت هِمَّتُهُ وإرادته دَنيَّة، غير متجاوزة ثواب الدنيا، وليس له إرادة في الآخرة، فإنه قد قَصُرَ سَعْيُهُ ونَظَرُه، ولذلك أرشده الله بقوله: ﴿فَعِنْدَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾، لأنه سبحانه هو المالك لكل شيء،إذاً فلْيَطلب العبدُ ثواب الدنيا والآخرة منه سبحانه ولْيَستعن به على تحصيل هذا الثواب العظيم، فإنه لا يُنالُ ما عند الله – من الأمور الدينية والدنيوية – إلا بطاعته تعالى، وصِدق الاستعانة به، والافتقار إليه على الدَوام، ﴿وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا﴾ لأقوال عباده ﴿بَصِيرًا﴾ بأعمالهم ونياتهم، وسيجازيهم على ذلك.

****

١٠. تفسير الربع العاشر من سورة النساء

الآية ١٣٥: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ﴾ أي كونوا قائمين بالعدل في كل أموركم، ﴿شُهَدَاءَ لِلَّهِ﴾: أي مُؤَدِّينَ الشهادة لوجه الله تعالى ﴿وَلَوْ﴾ كانت ﴿عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ﴾ ﴿إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَى بِهِمَا﴾ أي: ومهما كان شأن المشهود عليه غنيًّا أو فقيرًا، فلا يَحمِلَنَّكم غِنَى الغَنيّ ولا فقْر الفقير على تحريف الشهادة أو كِتمانها (ظناً منكم أنَّ ذلك في مصلحته)، فإنَّ الله تعالى أوْلَى به منكم، وأعلم بما فيه صلاحه، ﴿فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَى أَنْ تَعْدِلُوا﴾: أي فلا يَحمِلَنَّكم الهوى والتعصب للغير على ترْك العدل، ﴿وَإِنْ تَلْوُوا﴾ يعني: وإن تُحَرِّفوا الشهادة بألسنتكم فتأتوا بها على غير حقيقتها، ﴿أَوْ تُعْرِضُوا﴾ عنها بترْك أدائها أو بكتمانها: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ أي عليمًا بكل أعمالكم، وسيجازيكم عليها.

الآية ١٣٦: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا﴾: أي اعملوا على زيادة إيمانكم (وذلك بالإكثار من فِعل الطاعات)، لأنّ الإيمان يزيد بالطاعة ويَنقص بالمعصية، وداوِموا على ما أنتم عليه من التصديق الجازم ﴿بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ﴾ على رُسُله الكرام، ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ عن طريق الحق.

الآية ١٣٧: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا﴾ أي: ثم أصَرُّوا على كُفرهم واستمَرُّوا عليه، أولئك ﴿لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا﴾: أي ليس مِن حِكمة الله تعالى أن يَغفر لهم، ولا أن يُرشِدهم إلى طريق الهداية، (وذلك لإصرارهم على الكفر واستمرارهم عليه).

الآية ١٣٨، والآية ١٣٩: ﴿بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾: أي أخبِرهم بخبرٍ يَظهرُ أثره على بَشرَةِ وجوههم ألماً وحسرة، (وهو العذاب المؤلم في النار).

♦ وهؤلاء المنافقون هم ﴿الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ بالنُصرة والمَحبة والإعانة، ﴿أَيَبْتَغُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ﴾ يعني: أيَطلبون النُصرة والقوة عند الكافرين بتلك المَحبّة؟ إنهم لا يَملكون ذلك ﴿فَإِنَّ الْعِزَّةَ﴾ والنُصرة والقوة ﴿لِلَّهِ جَمِيعًا﴾: أي جميعُ ذلك لله وحده.

الآية ١٤٠، والآية ١٤١: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ﴾ سبحانه ﴿عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ﴾ أي في القرآن ﴿أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ﴾ أي فلا تجلسوا مع الكافرين والمستهزئين ﴿حَتَّى

يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ﴾ ﴿إِنَّكُمْ إِذًا مِثْلُهُمْ﴾: يعني إنّكم إذا جالستموهم، وهم على ما هم عليه من الكفر والاستهزاء، فأنتم مِثلهم؛ لأنكم رضيتم بكفرهم واستهزائهم، والراضي بالمعصية كالفاعل لها.

♦ وكذلك السامع لغَيْبَةِ أخيه (أي بما يَكرهه في غيبته)، وكانَ في استطاعته أن يدافع عنه، أو أن يقول لهم مَثلاً: (الله يهديه ويغفر له)، ليمنعهم بذلك من غيبته، أو كانَ في استطاعته أن يترك مجلس الغيبة ولم يفعل، وكان راضياً بذلك، ومُقِرًّا للمغتابين على ما هم عليه: فإنه مغتابٌ مثلهم يأكل لحم أخيه ميتاً.

﴿إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾ (يَلْقَون فيها سُوء العذاب)، وهؤلاء المنافقون هم ﴿الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ﴾ أي ينتظرون ما يَنزل بكم من البلاء والفتن والحرب: ﴿فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِنَ اللَّهِ﴾ ونَصرَكم على عدوكم وأخذتم الغنائم: ﴿قَالُوا﴾ لكم: ﴿أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ﴾ نُناصِرُكم؟، ﴿وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ﴾ أي قَدْرٌ من النصر والغنيمة، ﴿قَالُوا﴾ لهم: ﴿أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾؟ يعني ألم نساعدكم ونَحْمِكُم من المؤمنين؟، ﴿فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ﴾ أي بينكم وبينهم ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ ﴿وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ أي: ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين طريقًا ليَغلبوهم بالحُجَّة في الآخرة، وإنما قلنا (في الآخرة) لأنّ السياق كان يتحدث عن أنّ الله سوف يَحكم بين المؤمنين والكافرين يوم القيامة.

الآية ١٤٢، والآية ١٤٣: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ﴾ أي يعتقدون بجهلهم أنهم يُخادعونَ اللَّهَ، بما يُظهرونه من الإيمان، وبما يُبطنونه من الكفر، ظنًّا منهم أنّ ذلك يَخفى على الله تعالى، ﴿وَهُوَ خَادِعُهُمْ﴾ ومجازيهم بمثل عملهم، ﴿وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى﴾ والسبب في ذلك أنهم: ﴿يُرَاءُونَ النَّاسَ﴾ فلا يَرجونَ من الله أجراً على عبادتهم، وإنما يريدونَ ثناء الناس عليهم، ﴿وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾، ولذلك أمر الله المؤمنين – في آيةٍ أخرى – أن يذكروا الله ذكراً كثيراً، لأن الذكر الكثير براءةٌ من النفاق.

♦ وإنَّ مِن شأن هؤلاء المنافقين أنهم كانوا ﴿مُذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ﴾: أي حَيارَى مترددين بين الكفر والإيمان، لا يَستقرون على حال، فـ ﴿لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ﴾: أي فلا هم مع المؤمنين ولا هم مع الكافرين، ﴿وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ﴾ أي: ومَن يَصرف الله قلبه عن الإيمان وعن الاستمساك بهُداه: ﴿فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا﴾: أي فلن تجد له طريقًا إلى الهداية واليقين.

الآية ١٤٤: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ بالنُصرة والمَحبة والإعانة وبإفشاء أسرار المؤمنين إليهم، ﴿أَتُرِيدُونَ﴾ بمَحبتكم لأعدائكم ﴿أَنْ تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُبِينًا﴾ أي حُجَّةً ظاهرة على عدم صِدق إيمانكم؟

الآية ١٤٥، والآية ١٤٦: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ﴾ أي في أسفل منازل النار يوم القيامة، ﴿وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾ يَدفع عنهم هذا المصير، ثم ذكر تعالى الأمل الوحيد لهم في النجاة من ذلك العذاب الأبدي فقال: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا﴾ ﴿وَأَصْلَحُوا﴾ ما أفسدوه من أحوالهم باطنًا وظاهرًا، ﴿وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ﴾ من شر النفس والشيطان، واستمسكوا بدين الله تعالى، ﴿وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ في الدنيا والآخرة، ﴿وَسَوْفَ يُؤْتِ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾.

الآية ١٤٧: ﴿مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ﴾ أي: ماذا يستفيد اللهُ تعالى من تعذيبكم ﴿إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ﴾؟ فإنه سبحانه غنيٌّ عن ذلك، وإنما يُعذب العباد بذنوبهم إن لم يتوبوا وأصَرُّوا على ما هم فيه، ﴿وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا﴾ لعباده على طاعتهم له، ﴿عَلِيمًا﴾ بكل شيء.

****

١١. تفسير الربع الحادي عشر من سورة النساء

الآية ١٤٨، والآية ١٤٩: ﴿لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ﴾: أي: لا يُحِبُّ الله أن يَجهر أحدٌ بقوْل السُوء من السَبّ والغيبة وغير ذلك ﴿إِلَّا مَنْ ظُلِمَ﴾ يعني: إلا المظلوم، فإنه يُباح له أن يدعو على ظالِمِه، وأن يَذكُره بما فيه من السوء، لِيُبيِّن مَظْلمته، ﴿وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا﴾ يَسمع أقوالكم ﴿عَلِيمًا﴾ بنيَّاتكم وأعمالكم، لِذا فاحذروا أن تتكلموا بما يُغضبه.

♦ ثم حَبَّبَ اللهُ إلى عباده فِعل الخير في السر والعَلَن، وكذلك حَبَّبَ إليهم العفو عَمَّن ظلَمهم فقال: ﴿إِنْ تُبْدُوا خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ﴾: يعني إن تُظهِروا الخير أو تُخفوه، فإنَّ اللهَ سيُعطِي فاعلَه خيراً، ﴿أَوْ تَعْفُوا عَنْ سُوءٍ﴾: يعني أو تعفو عَمّن أساء إليكم، فإنَّ الجزاء من جنس العمل، فمَن عفا عن الخَلق: عفا اللهُ عنه، ومَن أحسن إلى الخَلق: أحسن اللهُ إليه، فلهذا قال: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا﴾ أي يعفو عن عباده مع قدرته عليهم، وسيعفو سبحانه عن صاحب العفو حينَ تزِلّ قدمه، فيَجني - في حق اللهِ تعالى – ما يَستوجب به العقوبة، فيَشكر اللهُ له عفوه السابق فيعفو عنه.

الآية ١٥٠، والآية ١٥١: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾ من اليهود والنصارى ﴿وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾ (وذلك بأن يؤمنوا باللهِ تعالى ويُكَذِّبوا رُسُلَه) ﴿وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ﴾ أي ببعض الرسل ﴿وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ﴾ ﴿وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا﴾ أي: ويريدون أن يَتَّخذوا طريقاً بين الكفر والإيمان، وليس هناك إلا طريق واحد (وهو الإيمان أو الكفر)، فمَن آمن بكل الرسل فهو المؤمن، ومَن آمن ببعضهم وكفر ببعضهم فهو الكافر، ولهذا قال تعالى: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا﴾، أما المؤمنون فإنهم يُقرُّون بنبوَّة الرُسُل أجمعين، ولا يُفرقون بين أحدٍ منهم في الإيمان بهم، وبما جاؤوا به من التوحيد.

الآية ١٥٢: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ﴾ أي صَدَّقوا بوحدانية اللهِ تعالى وعملوا بشريعته، ﴿وَرُسُلِهِ﴾ أي: وأقرُّوا بنُبُوَّة رُسُله أجمعين ﴿وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ﴾ – في الإيمان بهم – ﴿أُولَئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ﴾ أي سوف يُعطيهم جزاءَ إيمانهم وأعمالهم في جنات النعيم، ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ (يَغفر السيئات ويَتقبل الحسنات).

الآية ١٥٣: ﴿يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ﴾ وهم هنا اليهود، الذين جاؤوا يَطلبون منك – على سبيل العناد – طلباً يتوقف عليه تصديقهم أو تكذيبهم، وهو ﴿أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ﴾: أي تُنَزِّلَ عليهم

القرآن – كاملاً – مَرّةً واحدة كما نَزَلت التوراة والإنجيل، وهذا قمة الظلم والجهل، فإنَّ الرسولَ صلى الله عليه وسلم بَشر، ليس في يده شيءٌ من الأمر، بل إنّ الأمر كله لله، وهو الذي يُنزل ما يشاء في الوقت الذي يشاء (بحسب الأحوال والأحداث)، وذلك لتربية عباده، وتثبيت المؤمنين، والرد على المخالفين، مما يدل على اعتناء الله برسوله محمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه الكرام، كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ﴾.

♦ فلا تَعجب أيها الرسول مِن طلب هؤلاء اليهود ﴿فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً﴾ أي عياناً بالبصر، ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ﴾ أي بسبب ظُلْمِهم، حين سألوا أمرًا ليس مِن حقِّهم، ﴿ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾ أي: وبعد أن رأوا من الآيات بأبصارهم ما لم يَرَهُ غيرهم (حيث فلق الله لهم البحر وأنجاهم وأغرق عدوهم)، وبعد أن شاهدوا المعجزات (القاطعة بنفي الشرك) على يد موسى عليه السلام: اتخذوا العجل إلهاً يَعبدونه من دون الله تعالى، ﴿فَعَفَوْنَا عَنْ ذَلِكَ﴾: أي فعَفونا عن عبادتهم العجل بسبب توبتهم، ﴿وَآتَيْنَا مُوسَى سُلْطَانًا مُبِينًا﴾ أي: وآتينا موسى حُجَّة عظيمة تؤيِّد صِدق نُبُوَّته، فقهر بها أعداءه، ورغم هذا لم يؤثر ذلك في طِباع بني إسرائيل الغليظة.

الآية ١٥٤، والآية ١٥٥: ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ﴾ أي ورفعنا جبل الطور فوق رؤوسهم – تهديداً لهم – ﴿بِمِيثَاقِهِمْ﴾ أي بسبب نقضهم ميثاقهم، حين امتنعوا عن الالتزام بالعهد المؤكَّد (بالعمل بأحكام التوراة)، ﴿وَقُلْنَا لَهُمُ ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا﴾ أي: وأمرناهم أن يدخلوا باب "بيت المَقدس" سُجَّدًا، فلم يفعلوا، ﴿وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ﴾ أي: وأمرناهم ألا يَعْتَدُوا بالصيد في يوم السبت فاعتدَوا، واصطادوا، ﴿وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا﴾ أي: وأخذنا عليهم عهدًا مؤكَّدًا على أن يَعملوا بما في التوراة، فنقضوا هذا العهد، إذاً فلا غَرابة في سؤالهم إيَّاك أن تُنزل عليهم كتاباً من السماء.

﴿فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ﴾: أي فبسبب نقضهم للعهود لَعَنَّاهم، لأن هذا نَظير قوله تعالى في آيةٍ أخرى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ﴾، ﴿وَكُفْرِهِمْ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ أي: وكذلك لَعَنَّاهُمْ بسبب كُفرهم بآيات الله الدالة على صِدق رسله، وكذلك بسبب: ﴿وَقَتْلِهِمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾، وكذلك بسبب: ﴿وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾: أي عليها أغطية فلا تفهم قولك يا محمد ﴿بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ﴾ يعني: بل طمس الله عليها بسبب كُفرهم ﴿فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا﴾ إيمانًا ﴿قَلِيلًا﴾ لا ينفعهم (كإيمانهم بموسى وهارون والتوراة)، ولكن كُفرهم بمحمدٍ صلى الله عليه وسلم أضاع هذا الإيمان.

الآية ١٥٦: ﴿وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا﴾ أي: وكذلك لَعَنَّاهُمْ بسبب كُفرهم وافترائهم على مريم بما نسبوه إليها من الزنى، وهي بريئة منه.

الآية ١٥٧: ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ﴾ أي: ولَعَنَّاهُمْ أيضاً بسبب قولهم - على سبيل الاستهزاء -: (إننا قتلنا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مريم الذي يَدَّعِي أنه رسولَ اللَّه)، وهذا مِثل قول فرعون وهو يتحدث عن موسى: ﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾.

♦ فكَذَّبهم اللهُ تعالى بقوله: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ﴾ أي: وما قتلوا عيسى عليه السلام ﴿وَمَا صَلَبُوهُ﴾ ﴿وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ﴾ يعني: بل صلبوا رجلاً - ألقى اللهُ عليه شبه عيسى - فظَنُّوا أنهم صَلبوا عيسى، ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ﴾ يعني: والذين ادَّعَوا قَتْلَهُ من اليهود قد وقعوا في شكٍّ وحَيْرَة: (هل الرجل - الذي أُلْقِيَ عليه شبه عيسى - هو عيسى عليه السلام أو أنه غيره؟)، و ﴿مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ﴾ أي: وليس عندهم عِلْمَ بذلك ﴿إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ﴾ ﴿وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا﴾ أي: وما قتلوه مُتيقنين بأنه هو، بل كانوا شاكِّين مُتوهمين.

♦ فإذا كان النصارَى يَزعمون أنه صُلِب، ويّزعمونَ أنه إلهٌ (فهل هناك إلهٌ - يَتعَذب على أيدي بعضِ خَلقِه - يَستحق أن يُعبَد؟!)، (وهل يُعقل أن يُعبَد الصليب الذى قتِلَ عليه إلهٌ وأغرقه دماً، أمْ يُكسَر وَيُدَنَّس؟!)، (وإذا كانوا يعتقدون أنَّ الصَلب كانَ مِن أجل تكفير خطيئة آدم عليه السلام، فهل يتحمل الأبناء خطيئة الآباء؟ أمْ أنَّ اللهَ لم يكن قادراً أن يَغفر مِن غير تعذيب؟!)، (ومَن الذى كان يَحكم الكون، وَيُسَيّر المخلوقات ويَرزقها، ويُمسك السماء حتى لا تقع على الأرض عندما ماتَ الإله؟!)، (وإنْ كانوا يزعمون أنّ الإله قد مات، فمَن الذى أحياه؟ هل هو الذى أحيا نفسه؟ أمْ أنّ هناك إلهاً آخر هو الذى أحياه؟، ولماذا لم يَقهر الموتَ عندما جاءه ليَنتزع روحه، أليس هو إلههم كما يزعمون؟!)، تعالى اللهُ عن ذلك عُلُواً كبيراً، بل هو سبحانه - جَلَّ في عُلاه - الحي الذي لا يموت، القيومُ الذي لا ينام، الجبارُ القهارُ ذو القوةِ المتين.

الآية ١٥٨: ﴿بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ﴾ يعني: بل رفع اللهُ عيسى إليه ببدنه وروحه حيًّا، ونَجَّاهُ من الذين كفروا، ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا﴾ في مُلكه ﴿حَكِيمًا﴾ في تدبيره وقضائه.

الآية ١٥٩: ﴿وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ﴾ أي: وما مِن أحدٍ مِن أهل الكتاب - المختلفين في أمر عيسى عليه السلام - يكونُ موجوداً وقت نزول عيسى في آخر الزمان، إلاَّ وسيُؤمن بأنه عبدُ الله ورسوله، وذلك ﴿قَبْلَ مَوْتِهِ﴾: أي بعد نزوله من السماء (لأنه لن يموت حتى يَنزل في آخر الزمان)،

فحينئذٍ يُوقِنُ أهل الكتاب أنه ما قُتِلَ وما صُلِبَ (لأنّ بتروله ورؤيته: قد زالت الشُبهة التي كانت عندهم)، وعندما يَترل عليه السلام، يَقتل الدجال، ويُؤمن به أهل الكتاب مع المؤمنين، حتى تكون المِلَّة واحدة (وهي مِلَّة الإسلام).

﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ﴾ عيسى عليه السلام ﴿عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾ أي يَشهد على اليهود أنهم كَذَّبوه، وعلى النصارى أنهم جعلوه شريكاً مع الله تعالى في عبادتهم، وأنه بَرِيءٌ مِمَّن فَعَلَ ذلك، فقد قال الله تعالى – حاكياً عن عيسى عليه السلام –: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾، وكذلك يَشهد على مَن لم يَتَّبع بِشارته بمحمد صلى الله عليه وسلم ولم يُؤمن به.

الآية ١٦٠، والآية ١٦١: ﴿فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا﴾ أي: فبسبب ظلم اليهود لأنفسهم – بما ارتكبوه من الذنوب العظيمة –: ﴿حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ﴾ من المأكولات ﴿أُحِلَّتْ لَهُمْ﴾: أي كانت حلالاً لهم، ﴿وَبِصَدِّهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا﴾ أي: وكذلك كان هذا التحريم بسبب صَدِّهم أنفسهم وغيرهم عن دين الله القويم (وهو الإسلام)، ﴿وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا﴾ أي: وبسبب أخْذهم الربا (وهو الزيادة التي يأخذونها على المال المُقترَض) ﴿وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ﴾: أي وقد نَهاهم اللهُ عن أخْذ هذه الزيادة، ﴿وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ﴾ أي: وبسبب استحلالهم أموال الناس بغير حق ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ﴾ أي: وأعددنا للكافرين بالله ورسوله – مِن هؤلاء اليهود – ﴿عَذَابًا أَلِيمًا﴾ في جهنم.

الآية ١٦٢: ﴿لَكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ﴾ أي: لكنِ المتمكنون في العلم من اليهود ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ منهم بالله ورسله – ولم يُفرِّقوا بين أحدٍ من الرُسُل – أولئك ﴿يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ﴾ وهو القرآن ﴿وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ كالتوراة والإنجيل ﴿وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ﴾ أي: وأخُصّ الْمُقِيمِينَ الصَّلاةَ – لِمَزيدِ فضلِهم – وهم الذين يؤدُّون الصلاة في أوقاتها بخشوعٍ واطمئنان، ﴿وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ ﴿أُولَئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ وهو الجنة.

****

١٢. تفسير الربع الأخير من سورة النساء

الآية ١٦٣: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ – أيها الرسول – لِتُبَلِّغ رسالة ربك للناس ﴿كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ﴾ (واعلم أنّ الوحي: هو الإعلام السريع الخَفي، ووحي الله تعالى إلى أنبيائه: هو إعلامهم بما يريد أن يُعْلمهم به مِن أمور الدين وغيره)، ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ﴾ – واعلم أنّ الأسباط هم الأنبياء مِن وَلَدِ يعقوب (الذين كانوا في قبائل بني إسرائيل الاثني عشرة) –، ﴿وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا﴾ (والزبور هو أحد الكتب الإلهية، أنزله اللهُ تعالى على نَبِيِّه داوود عليه السلام).

الآية ١٦٤، والآية ١٦٥: ﴿وَرُسُلًا﴾: أي وأرسلنا للناس رُسُلاً، فمنهم مَن ﴿قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ﴾ في القرآن ﴿مِنْ قَبْلُ﴾: أي مِن قَبلِ هذه الآية، ﴿وَرُسُلًا﴾ أخرى ﴿لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ﴾ لِحكمةٍ أردناها، ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾.

♦ وفي هذه الآية إثبات صفة الكلام لله تعالى (كما يَليقُ بجلاله وكماله)، وأنه سبحانه كَلَّمَ نبيه موسى عليه السلام حقيقةً بلا وَساطة، وهذا مِثل قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ﴾، وفي هذا ردٌّ قاطع على مَن يُنكرون صفة الكلام لله تعالى، ويتحَجَّجون بأنه لا يَليق به سبحانه أن يَتكلم، فهذا قولٌ باطل، وافتراءٌ على الله عز وجل، بل على العكس تماماً، فإنَّ الذي يتكلم خيرٌ وأكْمَل مِن الذي لا يتكلم، والذي يَسمع ويُبصِر خيرٌ وأكْمَل مِن الأصَمّ والأعمى، وإنَّ فاقد الشيء لا يعطيه، ولَمَّا أراد اللهُ تعالى إبطال عبودية هذه الآلهة المزعومة مِن دونه: كانَ يُظهِر صفة النقص التي فيها، كما قال تعالى – حِكايةً عن ابراهيم عليه السلام –: ﴿يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا﴾، فكيف تُعبَدُ آلهةً صَمَّاء لا تَسمع ولا تُبصِر ولا تتكلم؟، وكذلك لَمَّا أراد إبطال عبودية النصارى لعيسى عليه السلام وأمِّه قال عنهما: ﴿كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ﴾، فكيف تُعبَدُ آلهة تحتاج إلى الطعام والشراب وتفتقر إليه، وبالتالي تحتاج إلى قضاء حاجتها؟!

♦ ثم يُخبِرُ تعالى أنه قد أرسل إلى خَلقه ﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ﴾ بثوابه ﴿وَمُنْذِرِينَ﴾ بعقابه ﴿لِئَلَّا﴾ أي لكي لا ﴿يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ﴾ يَعتذرون بها ﴿بَعْدَ﴾ إرسال ﴿الرُّسُلِ﴾ ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا﴾ أي غالباً بحُجَجه وأدِلَّته ﴿حَكِيمًا﴾ في تصرفه، إذ لا يؤاخذ عباده إلاّ بعد إقامة الحُجَّة عليهم.

الآية ١٦٦: ﴿لَكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ﴾ يعني: إنْ يَكفُر بك اليهود وغيرهم، فاللهُ تعالى يَشهد لك بأنك رسوله الذي أَنْزَلَ عليه القرآن العظيم، حيثُ ﴿أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ﴾ تعالى بشؤون عباده وما يُصلِحهم في

كل زمانٍ ومكان، ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ﴾: أي يَشهدونَ بصِدق ما أُوحِيَ إليك ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ أي: وشهادة الله وحدها كافية.

الآية ١٦٧: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بالله ورسوله ﴿وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي: وصَدُّوا الناسَ عن الإسلام، أولئك ﴿قَدْ ضَلُّوا ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ عن طريق الحق.

الآية ١٦٨، والآية ١٦٩: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا﴾ – باستمرارهم على الكفر – أولئك ﴿لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا﴾ ﴿إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ ﴿وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾ لأنه سبحانه لا يُعجِزُهُ شيء.

الآية ١٧٠: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الرَّسُولُ﴾ محمد صلى الله عليه وسلم ﴿بِالْحَقِّ﴾: أي بالإسلام – الذي هو دينُ الحق ﴿مِنْ رَبِّكُمْ﴾ ﴿فَآمِنُوا﴾ بمحمد صلى الله عليه وسلم واتبِّعوهُ ﴿خَيْرًا لَكُمْ﴾ ﴿وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ يعني: وإن تُصِرُّوا على الجحود والعِناد: فإنّ اللهَ غنيٌّ عنكم وعن إيمانكم، لأنه سبحانه مالِكُ السماوات والأرض وما فيهما، فإذا كانت السماوات والأرض قد خضعَتا لله تعالى (كَوْنًا وقدَرًا)، فالأوْلَى بكم أن تخضعوا له (شرعًا)، فتؤمنوا برسوله محمد صلى الله عليه وسلم وبالقرآن الذي أنزله عليه ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾، (وفي الآية دليل على عموم رسالة نبي الله ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم للناس أجمعين).

الآية ١٧١: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ﴾ – وهم هنا النصارى –: ﴿لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ﴾: أي لا تتجاوزوا الاعتقاد الحق في دينكم، ﴿وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ﴾، فلا تجعلوا له زوجةً ولا ولدًا، فـ ﴿إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ﴾ ﴿وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ﴾ – وهي كلمة: "كُن" التي خلقه الله بها – ﴿وَرُوحٌ مِنْهُ﴾ أرسله إلى مريم (وهو جبريل عليه السلام، الذي أرسله اللهُ إلى مريم بكلمة "كُن"، فنفخها جبريل في مريم بأمر ربه)، واعلم أنّ الروح هو اسم من أسماء جبريل عليه السلام، والدليل على ذلك: قوْل الله تعالى: ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ﴾، وقوله تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ﴾.

﴿فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾ ومنهم محمد صلى الله عليه وسلم الذي تجدونه في كتبكم، ﴿وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ﴾ بأن تجعلوا عيسى وأمه شريكين مع الله تعالى، ﴿انْتَهُوا﴾ عن ذلك ﴿خَيْرًا لَكُمْ﴾ ﴿إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ ﴿سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ﴾: أي تنزَّهَ اللهُ تعالى عن ذلك، فإنه ليس مُحتاجاً إلى ولدٍ كما يحتاجُ البشر، فإنّ البشر يحتاجون إلى ولدٍ يَخدمهم ويرعاهم في كِبَرهم، وعند مرضهم، وحالَ ضَعفِهم، أما اللهُ تعالى فهو –

سبحانهُ – القوي الغني الذي لا يحتاجُ إلى شيءٍ مما يحتاجُه البشر، فلا يحتاجُ إلى زوجةٍ أو ولد، لأنه سبحانه ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾: أي كل ما في السموات والأرض مِلْكُه وعبيده، فكيف يكونُ له منهم زوجة أو ولد؟! ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ على تدبير أمور خلقه وتصريف معاشهم.

♦ فسُبحانَ اللهِ العظيم، أحياناً يقولون عن المسيح إنه هو الله، وأحياناً يقولون إنه ابن الله، وأحياناً يقولون إنه ثالثُ ثلاثة، فمَن إلههم الذي يَعبدون؟!

الآية ١٧٢، والآية ١٧٣: ﴿لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ﴾: أي لن يَمتنع المسيح عليه السلام، ولن يُصابَ بأي خِزيٍ أو عار في ﴿أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ﴾ ﴿وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ﴾: أي وكذلك لن يَمتنع الملائكة المُقرَّبون من الإقرار بالعبودية لله تعالى، ﴿وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ﴾ أي: ومَن يَمتنع عن الانقياد والخضوع لله تعالى ﴿وَيَسْتَكْبِرْ﴾ عن عبادته ﴿فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا﴾ يوم القيامة، ويَفصلُ بينهم بحُكمه العادل ويُجازي كُلاً بما يستحق، ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ﴾ أي يُعطيهم ثواب أعمالهم كاملاً غير منقوص، بل ﴿وَيَزِيدُهُمْ﴾ سبحانه ﴿مِنْ فَضْلِهِ﴾ ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنْكَفُوا﴾ أي امتنعوا عن طاعة الله تعالى، ﴿وَاسْتَكْبَرُوا﴾ عن الانقياد له ﴿فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ في جهنم، ﴿وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا﴾ يُنقذهم، ﴿وَلَا نَصِيرًا﴾ يَدفع عنهم عذابَ الله.

الآية ١٧٤، والآية ١٧٥: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ وهو رسولنا محمد وما جاء به من المعجزات والحُجَج القاطعة، وأعظمها القرآن الكريم (المعجزة الخالدة التي تشهد له بصِدق نبوته ورسالته الخاتمة)، ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا﴾ وهو القرآن، ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ﴾ وَوَحَّدوا عبادتهم له ﴿وَاعْتَصَمُوا بِهِ﴾ من شر النفس والشيطان وكذلك استمسَكوا بالنور الذي أُنزل إليهم: ﴿فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ﴾: أي فسيُدخلهم الجنة رَحمةً منه وفضلاً، ﴿وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾ أي: ويوفقهم إلى سلوك الطريق المستقيم المُوصل إلى روضات الجنات.

الآية ١٧٦: (يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ إِنِ امْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَهُوَ يَرِثُهَا إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهَا وَلَدٌ فَإِنْ كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ وَإِنْ كَانُوا إِخْوَةً رِجَالًا وَنِسَاءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ).

♦ هذه الآية قد تَمَّ تفسيرها مع الآيتين (العاشرة والحادية عشر) من هذه السورة الكريمة (مع أحكام المواريث).